

كتب الفراشة - حكايات محبوبة

الماجِد أبو لِحيَة

هٰذِهِ «حِكاياتٌ مَحْبوبَةٌ» رائِعَةٌ يُحِبُّها أَبْناؤُنا ويَتَعَلَّقونَ بِها. فالصِّغارُ مِنْهُمْ يَتَشَوَّقونَ إلى سَماعِ والِدِيهِمْ يَرْوونَها لَهُمْ؛ والقادِرونَ مِنْهُمْ عَلى القِراءَةِ يُقْبِلونَ عَلَيْها بِلَهْفَةٍ وشَوْقٍ، فَيَتَمَرَّسونَ بِالقِراءَةِ ويَسْتَمْتِعونَ بِالحِكايَةِ. وهُمْ جَميعًا يَسْعَدونَ بِالتَّمَتُّعِ بِالرُّسومِ المُلَوَّنَةِ البَديعَةِ الَّتي تُساعِدُ عَلى إثارَةِ الخَيالِ وتَكْمِلَةِ الجَوِّ القَصَصِيِّ.

وقَدْ وُجِّهَتْ عِنايَةٌ قُصْوى إلى الأَداءِ اللُّغَوِيِّ السَّليمِ والواضِحِ. وطُبِعَتِ النُّصوصُ بِأَحْرُفٍ كَبيرَةٍ مُريحَةٍ تُساعِدُ أَبْناءَنا عَلى القِراءَةِ الصَّحيحَةِ.

الماجِد أبولِحْيَة

إعْدَاد : عَبْدالله أبومِدحَت

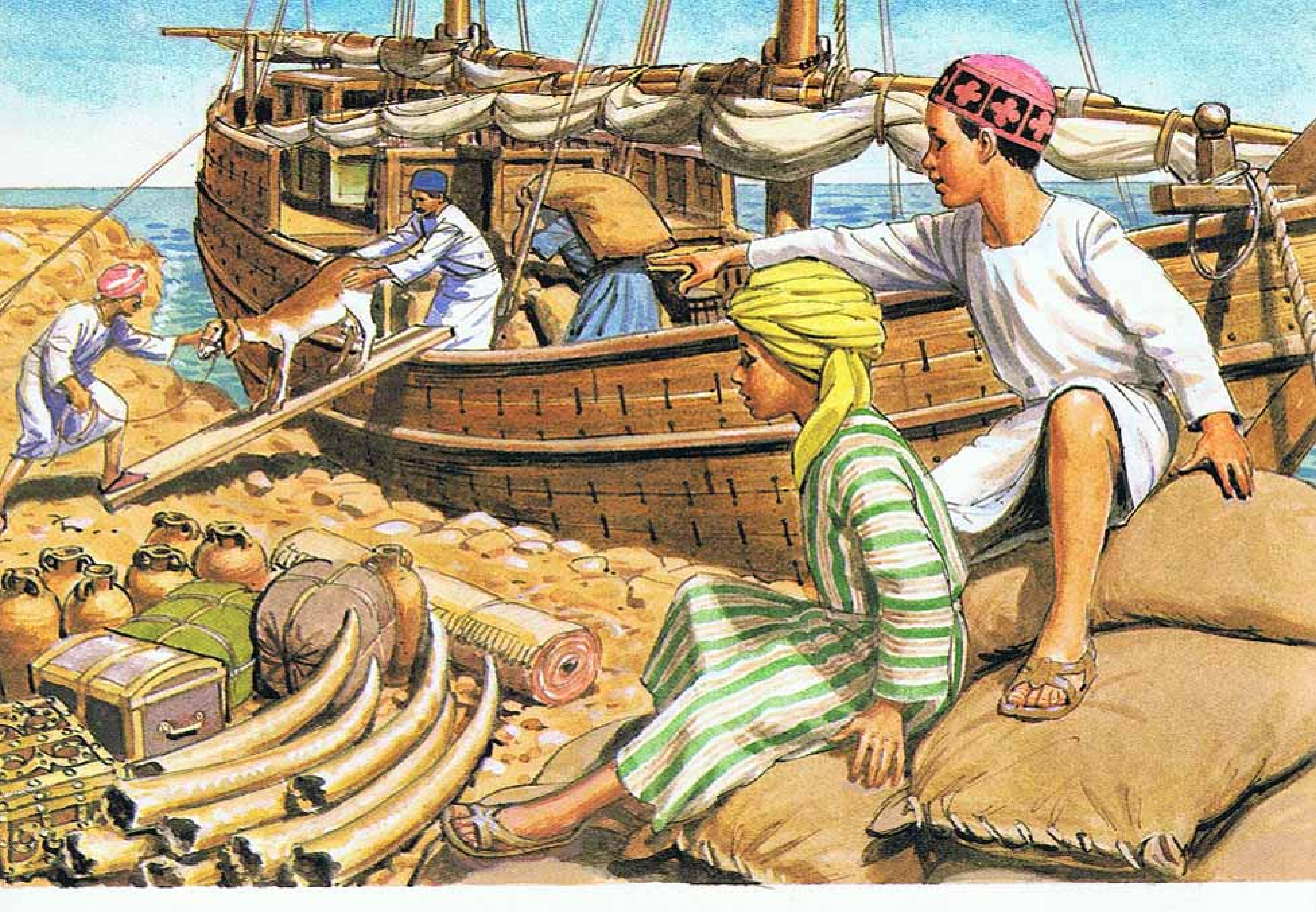


مكتبة لبنان ناشرون

في عَهْدِ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ (٧٨٦ – ٨٠٩ م) بَلَغَتْ بَغْدادُ قِمَّةَ المَجْدِ والازْدِهارِ وانْتَشَرَتِ العُلومُ والحَضارَةُ في شَتَّى بِقاعِ الإمْبراطورِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ، وعَجَّتْ مُدُنُ الإمْبراطورِيَّةِ ومَوانِئُها بِحَرَكَةٍ تِجارِيَّةٍ وثَقافِيَّةٍ واسِعَةٍ.

وكانَتِ البَصْرَةُ، المُطِلَّةُ عَلى الخَليجِ العَرَبِيِّ إحْدَى هٰذِهِ المُدُنِ – تَؤُمُّها السُّفُنُ مِنَ الهِنْدِ وبِلادِ الشَّرْقِ الأَقْصَى حامِلَةً الجَواهِرَ والتَّوابِلَ والبَخورَ والحَريرَ. وكانَ تُجّارُ البَصْرَةِ ونَواحِيها يَشْتَرونَ هٰذِهِ البَضائِعَ النَّفيسَةَ ويَنْقُلونَها في قَوافِلَ عَبْرَ الصَّحْراءِ إلى بَغْدادَ ومُدُنِ حَوْضِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ الغَنِيَّةِ.





كانَتِ المَدينَةُ بِمُخْتَلِفِ أَحْيائِها تَزْخَرُ دومًا بِالحَرَكَةِ – قَوارِبُ وسُفُنٌ تَصِلُها مُعَبَّأَةً بِنَفائِسِ الشَّرْقِ، وقَوافِلُ الإبِلِ الناشِطَةُ تُغادِرُ بِالاتِّجاهِ الآخَرِ. ومَعَ القادِمينَ والمُغادِرينَ قِصَصُ البَحْرِ الشّاسِعِ ومُغامَراتُ الصَّحاري الفَسيحَةِ بِسِحْرِها ومَخاطِرِها. لَقَدْ كانَتِ الحَياةُ في المَدينَةِ مُتْعَةً وتَحَدِّيًا مَعًا.

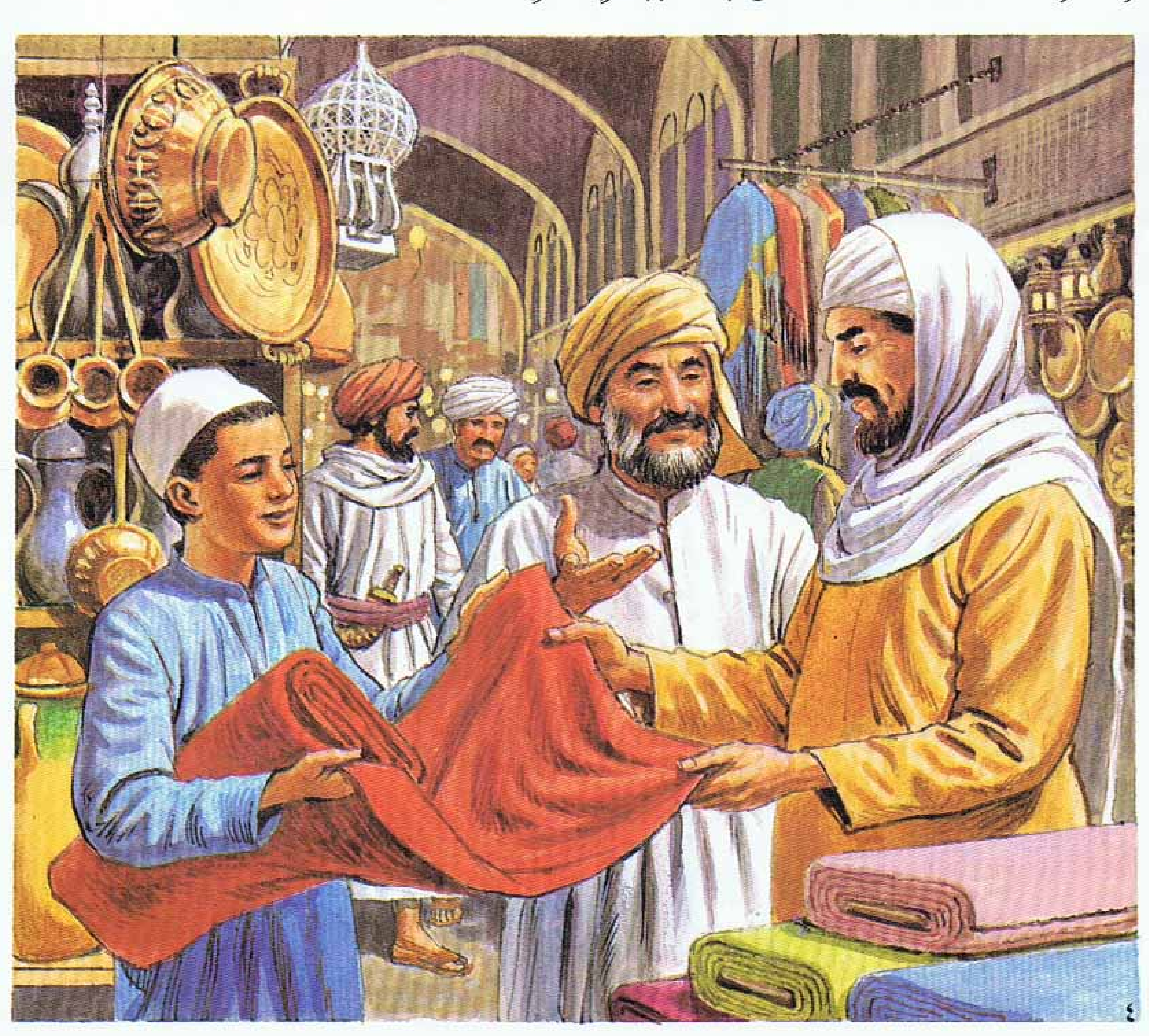
وكانَ مِنْ سُكّانِ أَحَدِ أَحْياءِ هٰذِهِ المَدينَةِ الصَّبِيّانِ عَبْدُ اللهِ وإبْراهيمُ – اللَّذانِ دَأَبا عَلى الاِستِمْتاعِ بِما يَجْري حَوْلَهُما. في كُلِّ يَوْمٍ، بَعْدَ عَوْدَتِهِما مِنَ المَدْرَسَةِ، كانا يَقْصِدانِ الميناءَ لِمُراقَبَةِ السُّفُنِ تُفَرِّغُ حُمولاتِها النادِرَةَ مِنْ نَفائِسَ وأَفاويهَ – كَالقِرْفَةِ وجَوْزِ الطِّيبِ وكَبْشِ القَرَنْفُلِ – تَعْبَقُ الأَجْواءُ بِعِطْرِها؛ وأَحْيانًا كانَتِ السُّفُنُ تُحْضِرُ حَيَواناتٍ غَريبَةً كَالسَّعادينِ والطَّواويسِ والبَبْغاواتِ.

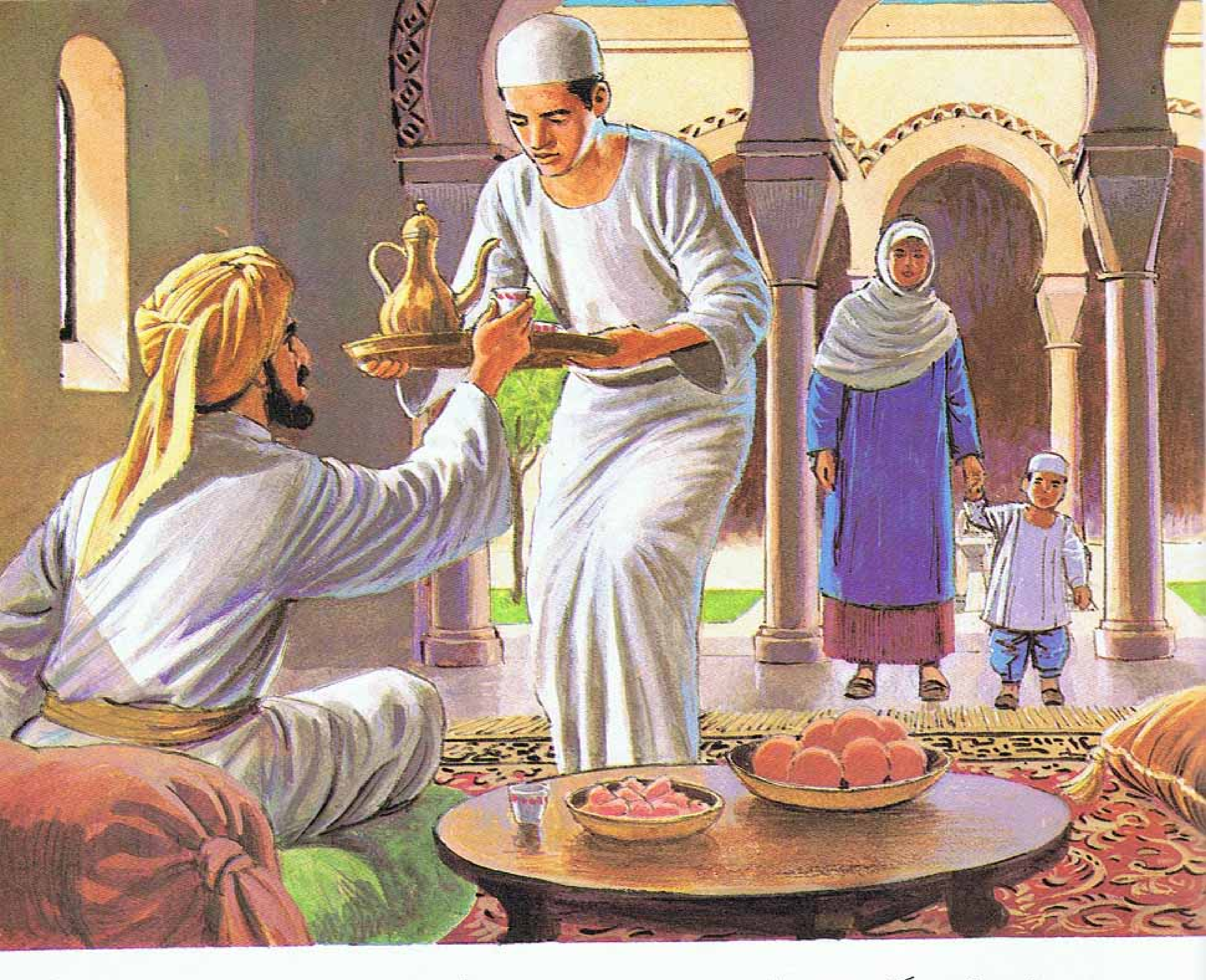
لَقَدْ تَعَزَّزَتْ أَواصِرُ الوُدِّ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ وإبْراهيمَ حَتّى غَدا الغُلامانِ وكَأَنَّهُما أَخَوانِ.

ومَرَّتِ السِّنونُ ، وشَبَّ الغُلامانِ عَنِ الطَّوْقِ ؛ وزاوَلَ كُلٌّ مِنْهُما حِرْفَةً يَكْسِبُ مِنْها ما يُعَزِّزُ دَخْلَ العائِلَةِ – فَلَمْ تكُنْ كِلا أُسْرَتَيْهِما مِنْ أَصْحابِ الثَّراءِ.

اِشْتَغَلَ عَبْدُ اللهِ أَجيرًا عِنْدَ تاجِرٍ في سُوْقِ المَدينَةِ يَتَعامَلُ بِمُخْتَلِفِ أَصْنافِ التِّجارَةِ – مِنَ الأَفاويهِ (التَّوابِل) والحَريرِ والسَّجّادِ والأَحْذِيَةِ والنُّحاسِيّاتِ والفِضِّيّاتِ إلى زَيْتِ الطَّبْخِ والسَّمَكِ المُجَفَّفِ.

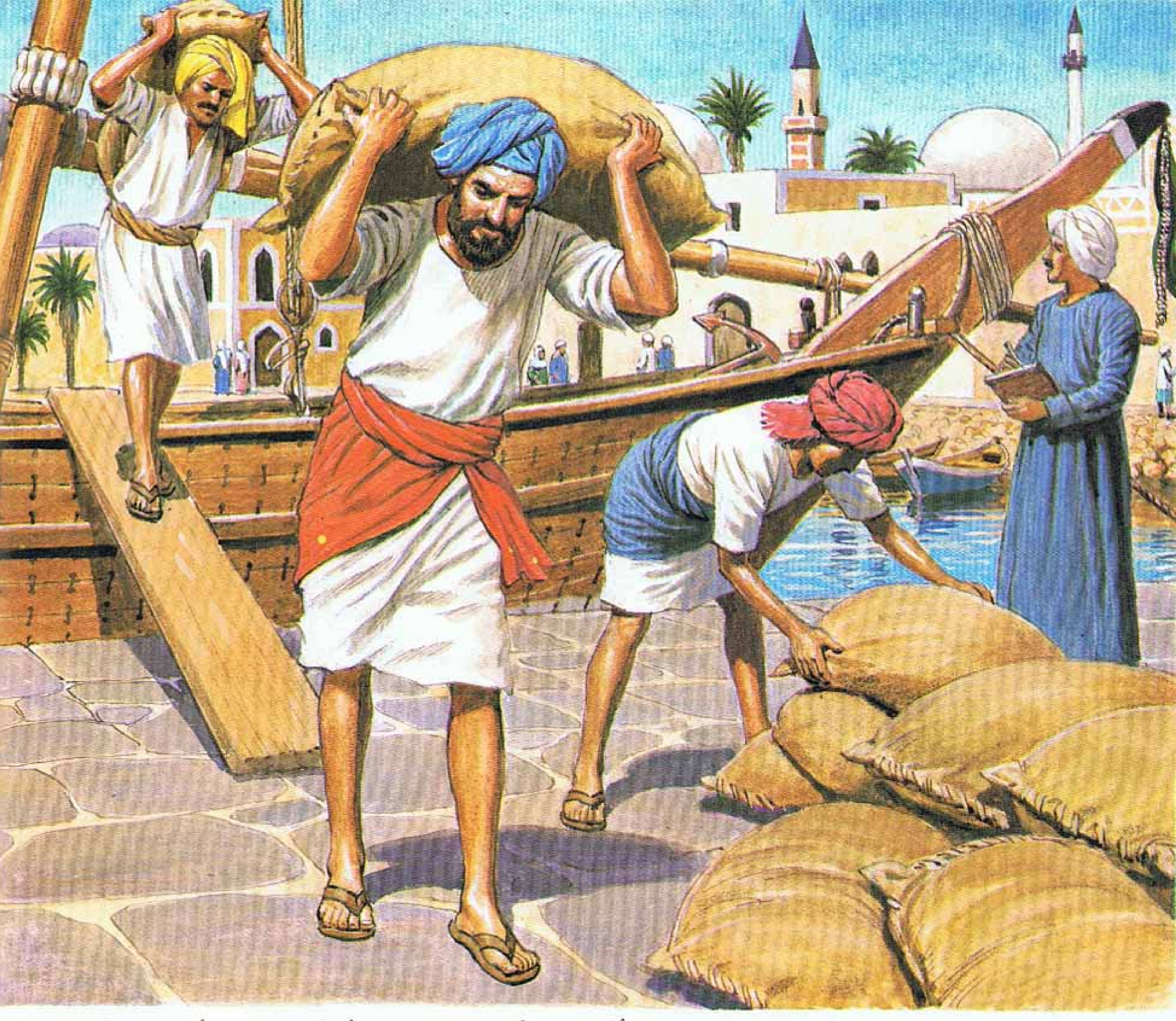
وبِحُكْمِ عَمَلِهِ ، عَبَرَ عَبْدُ اللهِ الصَّحْراءَ عِدَّةَ مَرّاتٍ بِرِفْقَةِ قَوافِلَ تَضُمُّ مِئاتِ الإِبِلِ المُحَمَّلَةِ بِمُخْتَلِفِ السِّلَعِ ، فَزارَ دِمَشْقَ والقُدْسَ وحَلَبَ والقاهِرَةَ. وكانَ في كُلِّ مَرَّةٍ يَعودُ بِأَخْبارِ وحِكاياتِ تِلْكَ المَواقِعِ ، وبِرِبْحٍ وَفيرٍ تَزايَدَتْ بِهِ حُظْوَتُهُ عِنْدَ سَيِّدِهِ.





وسُرْعانَ ما أَتْقَنَ عَبْدُ اللهِ سِرَّ مِهْنَتِهِ، فراحَ يُشارِكُ هُوَ بِتِجارَةٍ خاصَّةٍ مُسْتَقِلًّا عَنْ سَيِّدِهِ. ولَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حتّى أَصْبَحَ هُوَ مِنَ التُّجّارِ المَرْمُوقِينَ. فَتَزَوَّجَ فَتاةً مِنْ أَهْلِ الثَّراءِ، وتَمَلَّكَ قِطْعَةَ أَرْضٍ كَبيرَةً، في الحَيِّ، شادَ عَلَيْها قَصْرًا فَخْمًا فَسيحًا زُيِّنَتْ ساحاتُهُ بِالآجُرِّ المُزَخْرَفِ والنَّوافيرِ الرُّخامِيَّةِ. وفي حاشِيَةٍ مِنَ الخَدَمِ والحَشَمِ انْتَقَلَ عَبْدُ اللهِ وزَوْجَتُهُ ووَلَدُهُ حامِدٌ إلى قَصْرِهِم الجَديدِ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ، قَلَّما وَقعَتْ عَيْنا عَبْدِ اللهِ عَلى صَديقِهِ القَديمِ إبْراهيمَ، رُغْمَ أَنَّهُما ما زالا جارَيْنِ. والحَقيقَةُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ كانَ كُلَّما صادَفَ إبْراهيمَ تابَعَ السَّيْرَ مُتَظاهِرًا بِأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ.



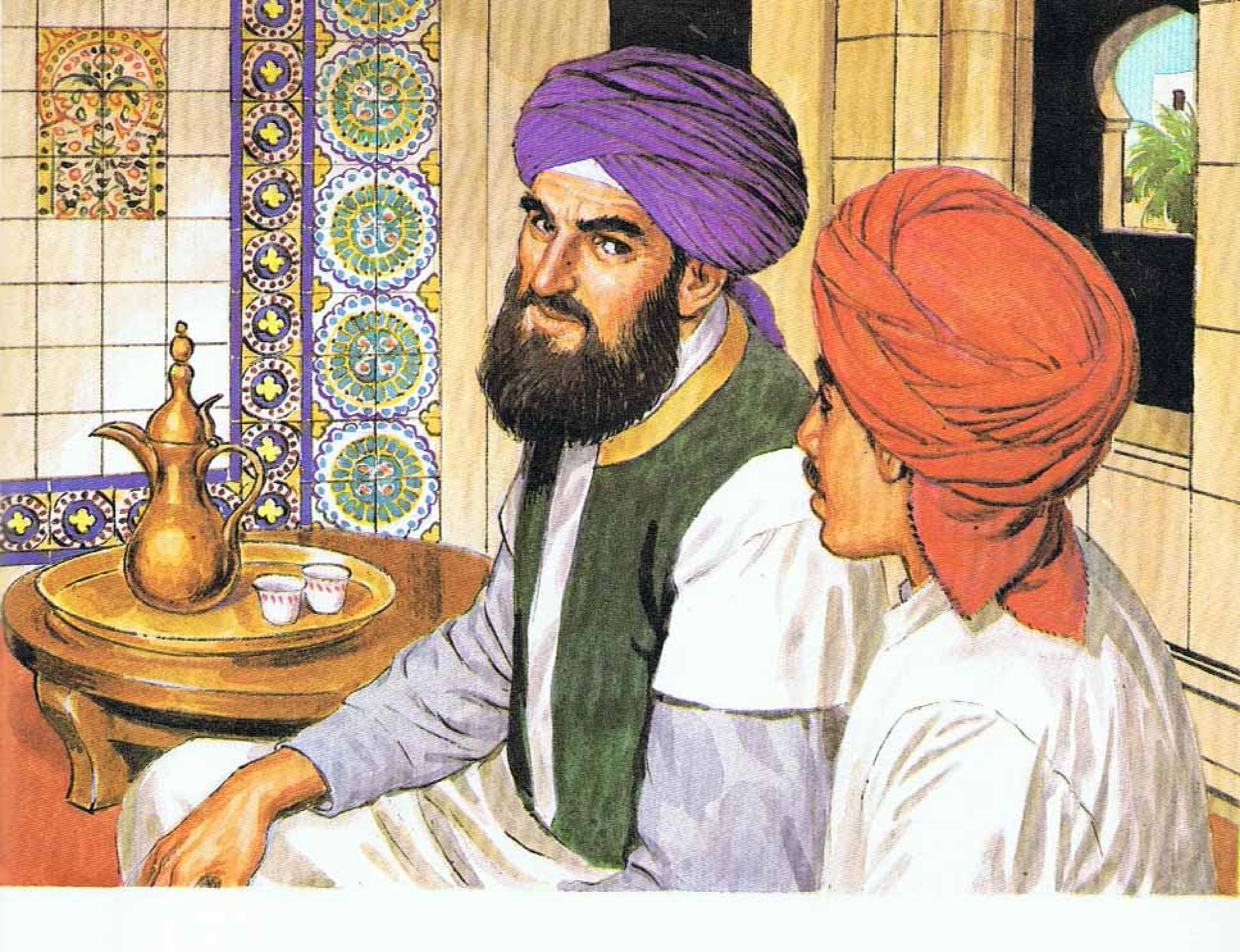
لَقَدِ اخْتارَ إبراهيمُ العَمَلَ في إفْراغِ السُّفُنِ على أَرْصِفَةِ الميناءِ مُذُ الْتَحَقَ صَديقُهُ عَبْدُ اللهِ بِمَوْلاهُ التّاجِرِ ؛ ولَمْ تَتَحَسَّنْ حالُهُ كَثيرًا طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ. لَقَدْ ظَلَّ يَرُوقُ لَهُ مَنْظَرُ المَراكِبِ تَعْبُرُ المِيْناءَ أَوْ تُغادِرُهُ. لٰكِنْ ما عادَ يَهُزُّهُ مَنْظَرُها مُثْقَلَةً بِالحُمولَةِ – لِأَنَّ إفْراغَها كانَ يَقَعُ عَلى عاتِقِهِ وعاتِقِ زُمَلائِهِ.

لَقَدْ كانَ إبْراهيمُ حَمّالًا مِنْ مِئاتِ الحَمّالينَ في المِيْناءِ – يَرْزَحُ في حَرارَةِ الشَّمْسِ ويَتَفَصَّدُ عَرَقًا تَحْتَ أَكْياسِ الدَّقيقِ والأَرُزِّ والأَفاويهِ والفاصولياءِ. وكانَ يَتَقاضى أَجْرًا بِقَدْرِ ما يَحْمِلُ – لٰكِنَّ دَخْلَهُ ظَلَّ قَليلًا وَمَحْدودًا رُغْمَ الكَثيرِ الّذي كانَ يَحْمِلُهُ !

كانَ إبْراهيمُ لا يَزالُ يَعيشُ في بَيْتِهِم القَديمِ مَعَ والِدَتِهِ العَجوزِ وزَوْجَتِهِ ووَلَدَيْهِ صافيناز وعامِرٍ. وكانَ العُسْرُ يُحيقُ بِهِمْ – جُدْرانُ البَيْتِ مُتَداعِيَةٌ، والسَّقْفُ يَدْلِفُ كُلَّما كانَتْ تُمْطِرُ، والدَّخْلُ شَحيحٌ – لٰكِنَّهم تَعَوَّدُوا أَنْ يَحْتَمِلوا ذٰلِكَ كأَنَّهُ قَدَرُ أَجْيالِ الفُقَراءِ أَمْثالِهِمْ، سابِقًا ولاحِقًا!.

وكانَ بِاسْتِطاعَةِ إبْراهيمَ وعائِلَتِهِ رُؤْيَةُ الأَشْجارِ الوارِفَةِ الظِّلالِ في الحَدائِقِ حَوْلَ بَيْتِ عَبْدِ اللهِ. ولَمْ يَكُنْ إبْراهيمُ يَحْسُدُ عَبْدَ اللهِ عَلى ذٰلِكَ، بَلْ عَلى العَكْسِ، فَقَدْ كانَ نَجاحُ صَديقِهِ مَدْعاةً لِسُرورِهِ. ولَمْ يَكُنْ إبْراهيمُ عَلى عِلْمٍ بِمَدى الغِنَى الَّذي حَقَّقَهُ صَديقُهُ، فَهُوَ يَلْمَحُهُ في السُّوقِ مِنْ حينٍ لِآخَرَ؛ وما حَدَثَ أَنْ دَعاهُ هٰذا قَطُّ لِزِيارَتِهِ في مَنْزِلِهِ.





ومَرَّتِ الأَعْوامُ – وكَبِرَ أَبْناءُ العائِلَتَيْنِ ؛ وسارَ حامِدٌ في خُطى والدِهِ عَبْدِ اللهِ ، وحَقَّقَ مِنَ النَّجاحِ ما بَشَّرَ أَنَّهُ يُجارِيهِ .

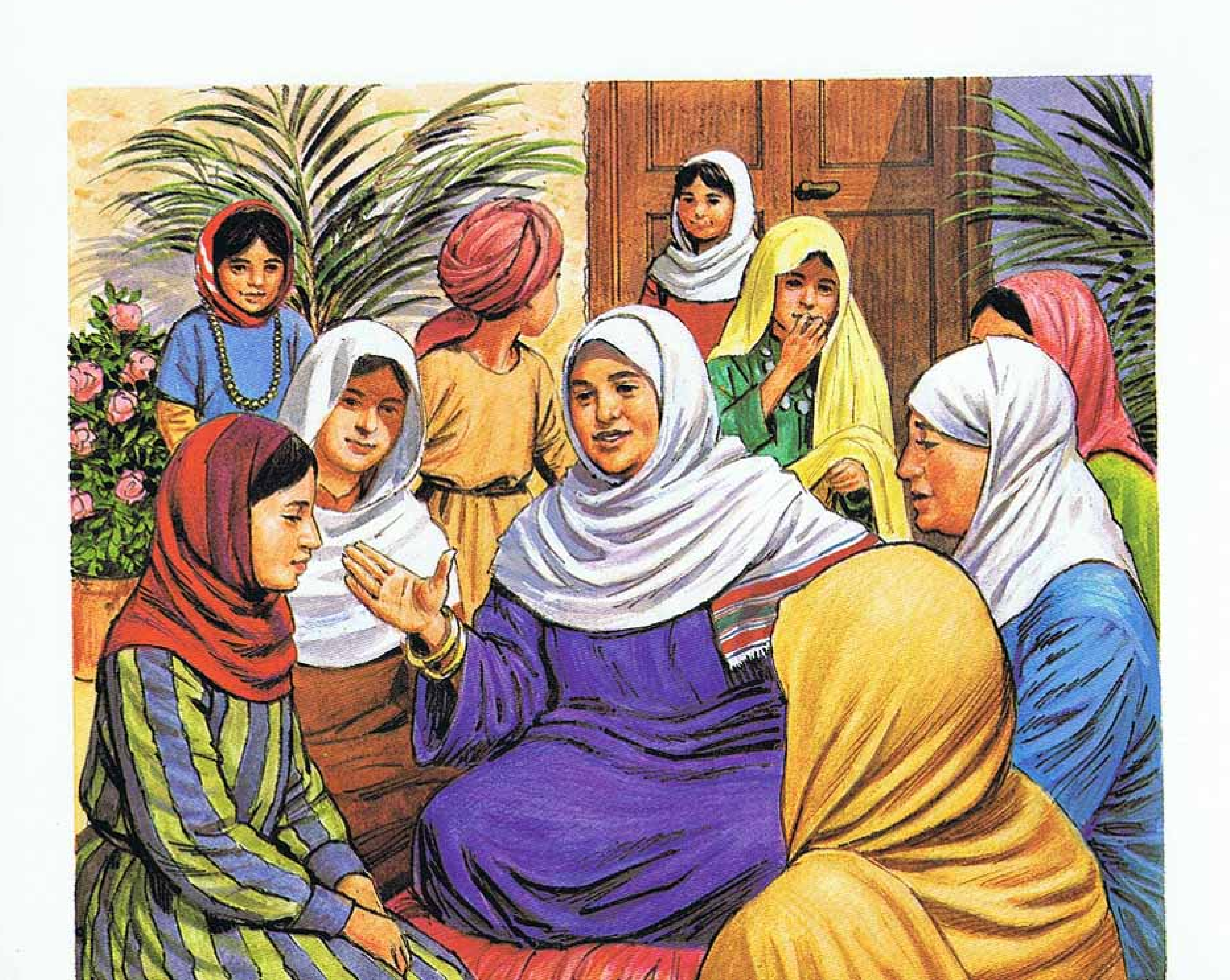
وذاتَ يَوْمٍ أَتَى حامِدٌ والِدَهُ قائِلًا : يا أَبَتِ ، لَقَدْ بَلَغْتُ السِّنَّ الَّتي يَنْبَغي أَنْ يُفَكِّرَ الشابُّ فيها بِالزَّواجِ . هَلْ فَكَّرْتَ لي بِالفَتاةِ الَّتي تَرْتَئيها مُناسِبَةً لي ؟

لَقَدْ جَرَتِ العادَةُ في تِلْكَ المَدينَةِ ، كَما في أَنْحاءٍ كَثيرَةٍ مِنَ العالَمِ ، أَنْ يَقومَ الوالِدانِ اخْتِيارِ العَروسِ المُناسِبَةِ لِابْنِهِمْ ؛ وكانَ عَبْدُ اللهِ وزَوْجَتُهُ قَدْ بَدَآ التَّفْكيرَ فِعْلًا في الأَمْرِ ، لٰكِنَّ اخْتيارَهُمْ لَمّا يَقَعْ بَعْدُ عَلى الفَتاةِ (والعائِلَةِ) المُناسِبَةِ .

أَطْرَقَ عَبْدُ اللهِ قَليلًا أَمامَ طَلَبِ حامِدٍ ثُمَّ أَجابَ : سَأَتَدارَسُ الأَمْرَ مَعَ والِدَتِكَ .

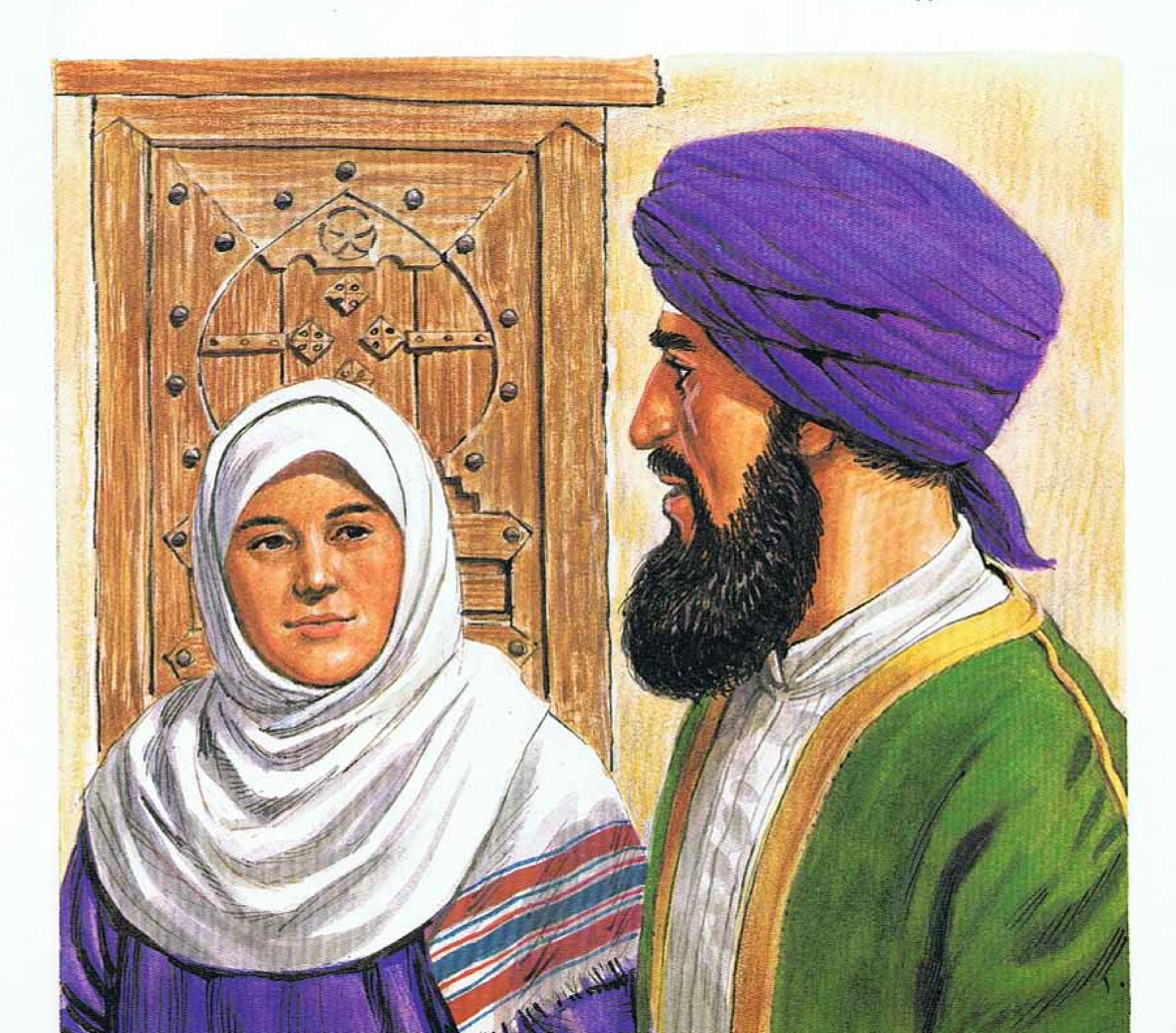
أَخذَتْ زَوْجَةُ عَبْدِ اللهِ تَبْحَثُ عَنِ الزَّوْجَةِ المُناسِبَةِ لِوَلَدِها بِحَماسٍ شَديدٍ ، فَراحَتْ تَزورُ الأُسَرَ الصَّديقَةَ ومَعارِفَ الأُسَرِ الصَّديقَةِ تَنْقُدُ بَناتِهِمْ بِهُدوءٍ وتَرَوٍّ. لٰكِنَّ فَتاتَها المَنْشودَةَ لَمْ تَكُن بَيْنَهُنَّ. فَهٰذِهِ صَغيرَةٌ عَلى حامِدٍ ، وتِلْكَ تَفوقُهُ سِنًّا ، وهٰذِهِ تَيِّقَةٌ نَزِقَةٌ ، وتِلْكَ مُدَلَّعَةٌ مُدَلَّلَةٌ ، والأُخْرى مُتطَلِّبَةٌ نَكِدَةٌ - فَلَنْ يَسْعَدَ حامِدٌ مَعَ أَيٍّ مِنْهُنَّ. والوَحيدَةُ الّتي نالَتِ الرِّضى كانَتْ مَخْطوبةً بعَقْدٍ مَكْتوبٍ !.

في البِدايَةِ ، لَمْ تكُنْ أُمُّ حامِدٍ تُطْلِعُ أَحَدًا عَلى الغَرَضِ مِنْ زِياراتِها. لٰكِنَّها اضْطُرَّتْ ، بَعْدَ إخْفاقِ مَساعِيها ، إلى الاِسْتِعانَةِ بِالمُقَرَّباتِ مِنَ الصَّديقاتِ لِإيْجادِ الكَنَّةِ العَتيدَةِ.



وفي يَوْمٍ جاءَتْ إحْدى الصَّديقاتِ إلى أُمِّ حامِدٍ تَقولُ: «أَتعْرِفينَ صافيناز ابْنَةَ إبْراهيمَ، صَديقِ الطُّفولَةِ لِزَوْجِكِ عَبْدِ اللهِ؟ إنَّها لُؤْلُؤَةٌ، قَمَرٌ بَيْنَ النُّجومِ خَلْقًا وخُلُقًا. إنَّني عَلى ثِقَةٍ أَنَّكِ لَوْ تُقابِلينَها فَلَنْ تَحْتاجي إلى مَزيدٍ مِنَ البَحْثِ - إنَّ وَلَدَكِ سَيَكُونُ بِها أَسْعَدَ الرِّجالِ.»

وعَرَضَتْ أُمُّ حامِدٍ الفِكْرَةَ عَلى زَوْجِها - مُرْتَئِيَةً أَنَّ فَقْرَ إبْراهيمَ لا يَنْبَغي أَنْ يَكونَ حَجَرَ عَثْرَةٍ في سَبيلِ سَعادَةِ وَلَدِهِما. فإذا كانَتْ صافيناز حَقًّا كَما تَصِفُ الصَّديقَةُ، فَمالُ عَبْدِ اللهِ كَفيلٌ بِكِفايَةِ العائِلَتَيْنِ. ولَمْ تَلْبَثْ أُمُّ حامِدٍ أَنْ أَرْسَلَتْ خادِمًا إلى بَيْتِ إبْراهيم يُعْلِمُهُمْ مُسْبَقًا بِزِيارَتِها.





وَفي اليَوْمِ التّالي كانَتْ أُمُّ حامِدٍ ضَيْفَةً مُعَزَّزَةً في بَيْتِ إبْراهيمَ المُتَواضِعِ . وكانَتْ حَريصَةً أَلّا تَبوحَ لِمُضيفَتِها بِالسَّبَبِ الحَقيقِيِّ لِزيارَتِها – فَأَدارَتِ الحَديثَ عَنِ الأَيّامِ الخَوالي مُسْتَعيدَةً ذِكْرى الصَّداقَةِ القَديمَةِ بَيْنَ زَوْجَيْهِما .

وجَلَسَتِ السَّيِّدَتانِ تَشْفّانِ القَهْوَةَ وتَأْكُلانِ البُقْسُماطَ وتَتَبادَلانِ أَطْرافَ الحَديثِ . وحِينَ جاءَتِ المُضيفَةُ عَلى ذِكْرِ ابْنَتِها صافيناز ، أَعْرَبَتْ أُمُّ حامِدٍ عَنْ رَغْبَتِها في رُؤْيَةِ الفَتاةِ . وما إنْ وَقَعَتْ عَيْناها عَلى صافيناز حَتّى أَدْرَكَتْ أَنَّ ما تَقولُهُ الصَّديقاتُ عَنْها يَقْصُرُ عَنِ الواقِعِ !



وقدَّمَتِ المُضيفةُ ابنتَها إلى ضَيْفَتِها بِشَيْءٍ مِنَ الاِعْتِزازِ قائِلَةً: «هٰذِهِ هيَ ابْنَتي صافيناز!» ثُمَّ وَجَّهتِ الكَلامَ إلى ابْنَتِها قائِلَةً: «قَرِّبي سَلِّمي عَلى جارَتِنا – زَوْجَةِ صَديقِ أَبيكِ القَديمِ!»

ووَسْطَ ذُهولِها بِمَا رَأَتْ، راحَتْ أُمُّ حامِدٍ تَرْتَجِلُ بِضعَ أَسْئِلَةٍ وَجَّهَتْها إلى صافيناز، فَكانَ إعْجابُها بِها يَتَزايَدُ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ أَجْوِبَتِها.

وتَماوَجَتِ الأَفْكارُ في رَأْسِ أُمِّ حامِدٍ تَقولُ: «إنَّها حَقًّا رائِعَةٌ! قَمَرٌ بَيْنَ النُّجومِ؛ كَيْفَ غابَ هٰذا الجَمالُ والكَمالُ عَنِ انْتِباهِنا؟ إنَّها العَروسُ المَنْشودَةُ!»

وأَمامَ هٰذا المَوْقِفِ لَمْ تَسْتَطِعْ أُمُّ حامِدٍ إلّا الكَشْفَ عَنِ الغَرَضِ مِنْ حُضورِها وإلّا الإعْلانَ أَنَّ ما كانَتْ تَنْشُدُهُ قَدْ وَجَدَتْهُ! وامْتَدَّتْ يَدُها إلى جَيْبِها تَسْحَبُ صُندوقًا فِضِّيًّا صَغيرًا قَدَّمَتْهُ إلى صافيناز قائِلَةً: «أُريدُكِ أَنْ تَحْتَفِظي بِهٰذا الصُّنْدوقِ، إنَّهُ لَكِ. فَقَطْ عِديني أَنَّكِ سَتَدْرُسينَ عَرْضَ وَلَدي الزَّواجَ مِنْكِ، فَكِّري مَلِيًّا في هٰذا العَرْضِ».

وتَطَلَّعَتْ صافيناز نَحْوَ والِدَتِها قَبْلَ أَنْ تَتَسَلَّمَ الصُّنْدوقَ. وحِينَ أَوْمَأَتِ الأُمُّ إيجابًا تَناوَلَتِ الاِبْنَةُ الصُّنْدوقَ قائِلَةً: «أَعِدُكِ، بِكُلِّ سُرورٍ».

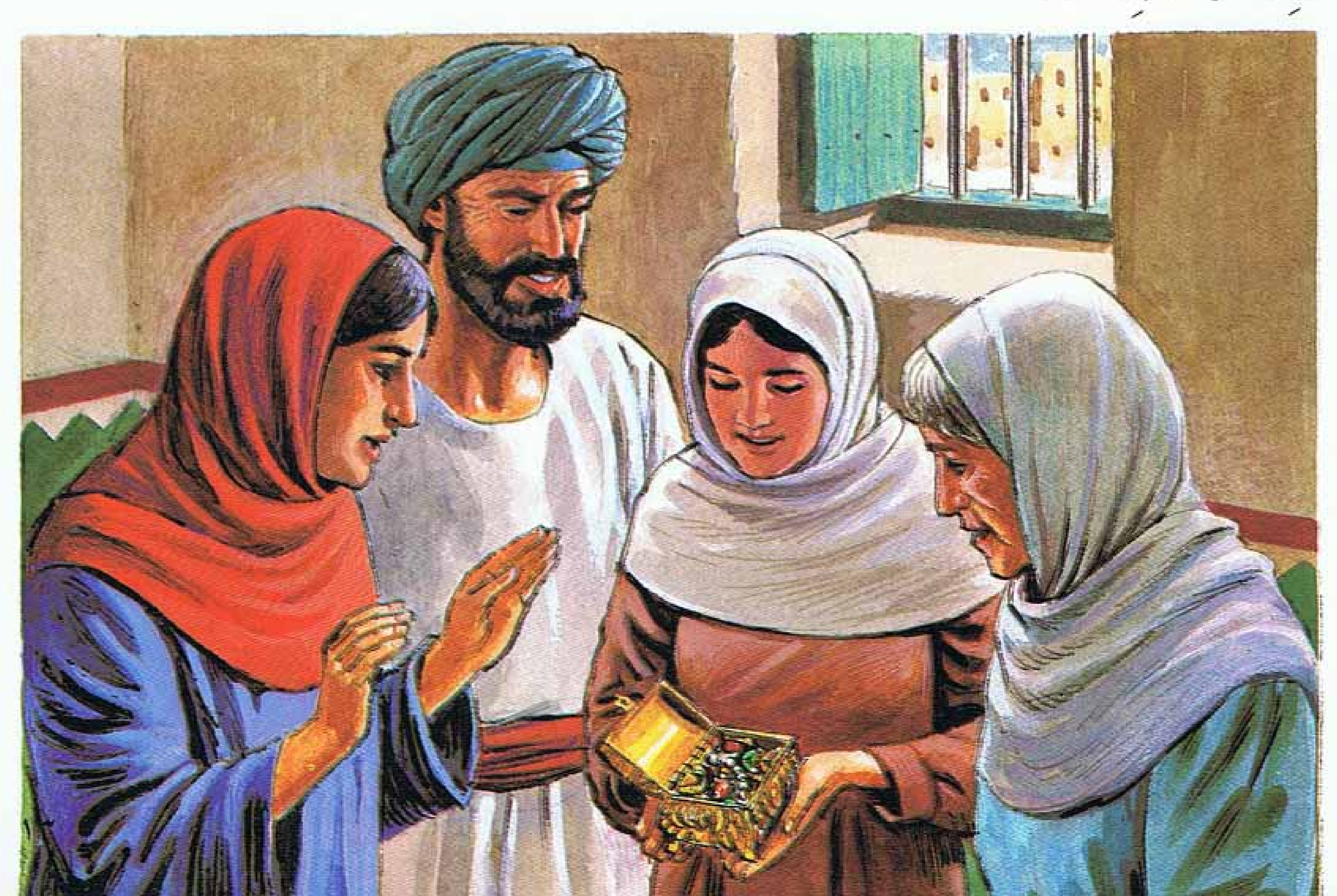
كانَ في الصُّنْدوقِ ثَلاثَةُ خَواتِمَ رائِعَةِ التَّرْصيعِ وعِقْدٌ فاخِرٌ أَسْماطُهُ مِنْ أَسْلاكِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ وحَبّاتُهُ مِنَ الزُّمُرُّدِ والياقوتِ والماسِ تَبْهَرُ الأَنْظارَ. إِنَّها حَقًّا هَدِيَّةٌ لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ.

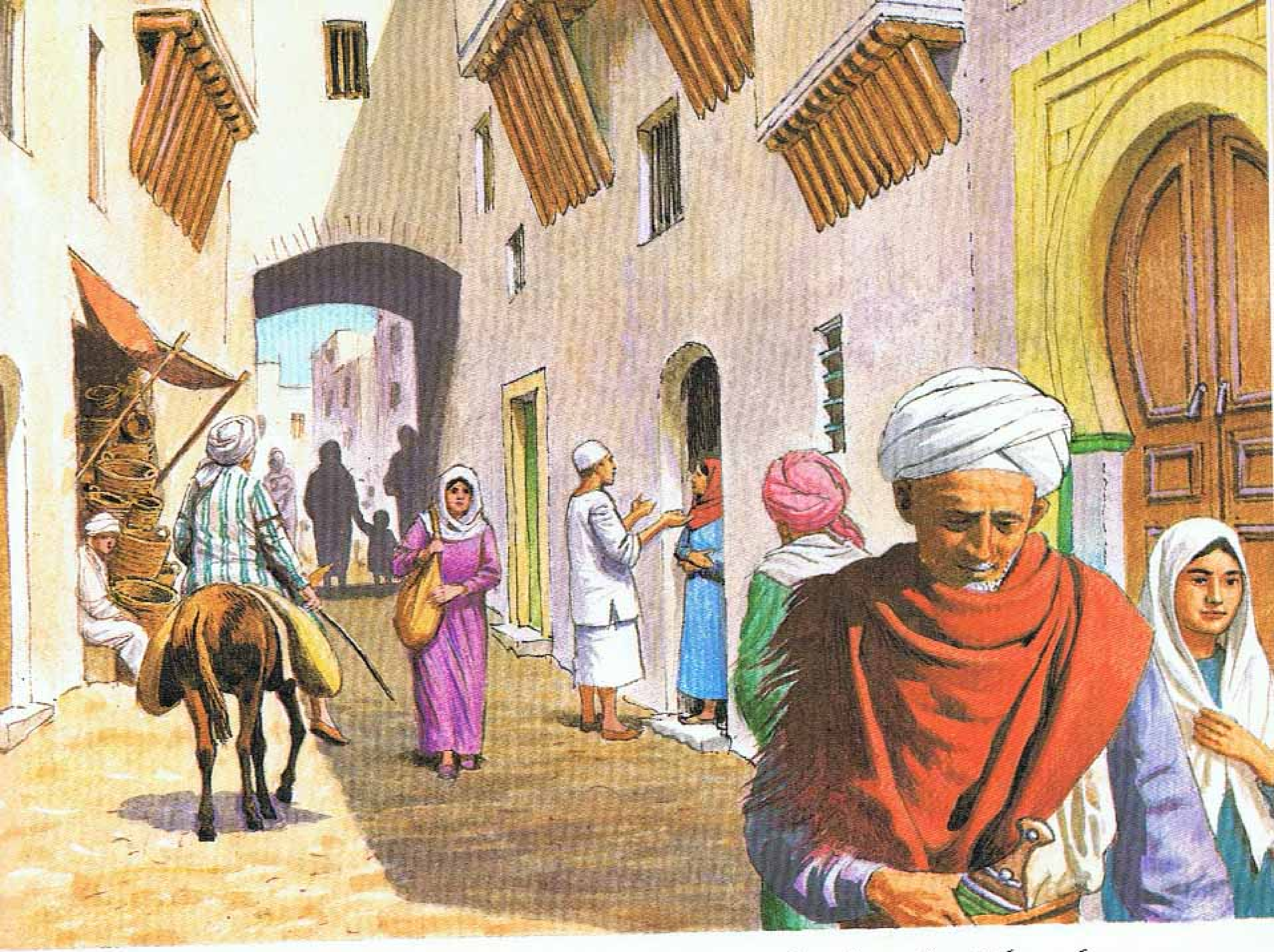
بَعْدَ انْصِرافِ أُمِّ حامِدٍ، جَلَسَتْ صافيناز وأُمُّها تَنْتَظِرانِ بِلَهْفَةٍ وفارِغِ صَبْرٍ عَوْدَةَ إِبْراهيمَ مِنْ عَمَلِهِ. وما إِنْ عَتَّبَ هٰذا البابَ حَتّى راحَتا تُخْبِرانِهِ، دُونَ تَوَقُّفٍ، بِما حَدَثَ. وأَرَتاهُ أَيْضًا الحُلِيَّ الرّائِعَةَ في صُنْدوقِها الفِضِّيِّ.

فَطَمْأَنَ إِبْراهيمُ لَهْفَتَهُما قائِلًا: «أَنْباءٌ طَيِّبَةٌ، ونَسَبٌ مُشَرِّفٌ».

لٰكِنْ بَعْدَ مَزيدٍ مِنَ التَّفْكيرِ والتَّأَمُّلِ أَخَذَتِ الشُّكوكُ تُساوِرُ إِبْراهيمَ حَوْلَ عَرْضِ الزَّواجِ هٰذا. فَراحَ يَقولُ في نَفْسِهِ: «كَيْفَ تَمَّ هٰذا الأَمْرُ بِهٰذِهِ السُّرْعَةِ؟ هَلْ يُريدونَ حَقًّا أَنْ يَتَزَوَّجَ وَلَدُهُمْ في أُسْرَةٍ فَقيرَةٍ كَأُسْرَتِنا - إِنِّي أَشُكُّ جِدًّا في ذٰلِكَ».

ولَمْ يَسْتَطِعْ إِبْراهيمُ مَعَ تَزايُدِ ارْتِيابِهِ إِلّا أَنْ يُصارِحَ امْرَأَتَهُ عَلى انْفِرادٍ بِذٰلِكَ، فَقالَ: «لَنْ أُفاجَأَ يا أُمَّ عامِرٍ إِذا غَيَّرَ الجيرانُ رَأْيَهُم. ولَنْ أَسْتَغْرِبَ أَنْ يَطْلُبوا اسْتِعادَةَ الجَواهِرِ آجِلًا أَوْ عاجِلًا!».





وما أَسْرَعَ أَنْ تحقَّقَتْ شُكوكُ إبْراهيمَ وحَدْسُهُ. فَما إنْ عادَتْ زَوْجَةُ عَبْدِ اللهِ إلى البَيْتِ حَتّى نادَتْ زَوْجَها وَوَلَدَها لِتُنَبِّئَهُما بِلَهْفَةٍ وحَماسَةٍ أَخْبارَ صافيناز. لٰكِنَّ الإِثْنَيْنِ قابَلا الأَنْباءَ بِبُرودٍ.

ورَدَّ حامِدٌ قائِلًا: «أُتْرُكيكِ مِنْ هٰذا يا أُمّاهُ، فَتِّشي لي عَنْ فَتاةٍ مِنْ عائِلَةٍ عَريقَةٍ ذاتِ مَكانَةٍ وثَراءٍ، تَعْرِفُ أَساليبَ التِّجارَةِ والتُّجّارِ – فذٰلِكَ أَهَمُّ لَدَيَّ بِكَثيرٍ مِمّا تَصِفينَ!».

وعَبَثًا حاوَلَتِ الأُمُّ إقْناعَ وَلَدِها وزَوْجِها – حَتّى بِدِراسَةِ الفِكْرَةِ. ولَمْ تَجْرُؤْ أَمامَ تَعَنُّتِهِما أَنْ تُخْبِرَهُما بِأَمْرِ الهَدِيَّةِ الثَّمينَةِ الَّتي قَدَّمَتْها إلى صافيناز. وَكانَ عَلَيْها، لِتَفادي غَضَبِهِما، اسْتِعادَةُ صُنْدوقِ الجَواهِرِ الَّذي تَصَرَّفَتْ بِهِ دُونَ اسْتِشارَتِهِما؛ فَبَعَثَتْ لِذٰلِكَ خادِمًا إلى بَيْتِ إبْراهيمَ في اليَوْمِ التّالي.

طَبْعًا ، لَمْ يَخْطِرْ ببالِ عائِلَةِ إبْراهيمَ رَفْضُ الطَّلَبِ ، فسَلَّموا صُنْدوقَ الجَواهِرِ إلى الخادِمِ الَّذي جاءَ لِاسْتِعادَتِهِ ؛ وكانَ ذٰلِكَ إيْذانًا بِأَنَّ مَشروعَ الزَّواجِ قَدْ أُلْغِيَ .

وتَغَرْغَرَتْ عَيْنا صافيناز بالدَّمْعِ ، فَحاوَلَتِ الأُمُّ مُؤاساتَها قائِلَةً : «عَسَى أَنْ تكرَهُوا شَيْئًا وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، صَدَقَ اللهُ العَظيمُ – إنَّهُ لَمِنَ الأَفْضَلِ لَكِ أَلّا تَتَزوَّجي رَجُلًا مِنْ عائِلَةٍ لا تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ» . وهَزَّ إبْراهيمُ رَأْسَهُ مُوافِقًا .

أَمّا عامِرٌ ، أَخو صافيناز ، فَقَدْ كانَ وَقْعُ الإلْغاءِ عَلَيْهِ صَدْمِيًّا عَنيفًا . فَانْتَفَخَتْ أَوْداجُهُ غَضَبًا وغَيْظًا وهُوَ يَصيحُ : «لا أَسْتَطيعُ احْتِمالَ هٰذا ! حِيْنَ أَخْبَرْتُ رِفاقي أَنّ صافيناز سَتَتَزَوَّجُ مِنْ حامِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ سَخِروا مِنِّي ولَمْ يُصَدِّقوني . فَماذا سَيَكونُ مَوْقِفي أَمامَهُم الآنَ ؟ لَقَدْ جَلَبَ عَبْدُ اللهِ العارَ عَلى عائِلَتِنا ، وإنّي لَأَشْعُرُ أَنَّهُ قَدْ أَذَلَّني أَنا شَخْصِيًّا . لَنْ يَكُونَ لي بَقاءٌ في هٰذا البَلَدِ بَعْدَ اليَوْمِ – إنِّي راحِلٌ مَعَ القافِلَةِ التّالِيَةِ المُتَّجِهَةِ غَرْبًا !»



صَباحَ اليَوْمِ التّالي كانَ عامِرٌ يُوَدِّعُ والِدَيْهِ وأُخْتَهُ ، وعُيونُ المُوَدِّعِ والمُوَدِّعين تَغْرَورِقُ بالدَّمْعِ والأَسَى . لَمْ يَحْمِلْ عامِرٌ مَعَهُ إلّا القَليلَ مِنَ الحوائجِ والزّادِ ، مِمَّا يَسْهُلُ حَمْلُه ، حِيْنَ انْطَلَقَ إلى خانِ القَوافِلِ في البَلْدَةِ يَسْتَفْسِرُ عَنْ مَوْعِدِ سَفَرِ القَوافِلِ .

فأَجابَهُ قَيِّمُ الخانِ بِلُطْفٍ : «لِلأَسَفِ يا وَلَدي ، لَقَدِ انْطَلَقَتِ القافِلَةُ المُقَرَّرَةُ لِهٰذا الأُسْبوعِ لَيْلَةَ أَمْسِ في طَريقِها إلى حَلَبَ . وأَظُنُّهُمْ سيَقْضونَ يَوْمَهُمْ في واحَةِ حامِزٍ – ولَعَلَّكَ لَوْ تُجِدُّ السَّيْرَ تَلْحَقُ بِهِمْ إلى هُناكَ قَبْلَ أَنْ يُغادِروا ! » .

ولَمْ يَتَرَدَّدْ عامِرٌ في اتِّخاذِ الطَّريقِ التُّرابِيِّ إلى واحَةِ حامِزٍ . وَكانَ هَواءُ الصَّباحِ لا يَزالُ مُعْتَدِلَ الحَرارَةِ وهُوَ يَتَجاوَزُ ظِلالَ أَسْوارِ المَدينَةِ .





لكِنْ ما إنْ صَعَّدَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ الأُفُقِ حَتّى راحَتْ تَصُبُّ هَجيرَها اللاّفِحَ فَوْقَ البِطاحِ الجَفيفَةِ والصُّخورِ الجَرْداءِ وبَقايا جَنَباتِ الطَّرْفاءِ النَّحيلَةِ. لكِنَّ حُرْقَةَ الدَّمْعِ في عَيْني عامِرٍ أَغْفَلَتْهُ عَنْ قَطَراتِ العَرَقِ الّتي كانَ يَتَفَصَّدُ بِها جَسَدُهُ. لَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ إلّا بالإذْلالِ الَّذي أَلْحَقَهُ عَبْدُ اللهِ بِهِ وبِعائِلَتِهِ.

ومِنْ على رَبْوَةٍ حَصْباوِيَّةٍ لَحَظَ عامِرٌ عَنْ بُعْدٍ ثُلَّةً مِنَ الخَيّالَةِ تَخِبُّ نَحْوَ المَدينَةِ باتِّجاهِهِ. ولَمْ يأْبَهْ عامِرٌ لَهُمْ إذ مَرُّوا بِهِ إلّا حينَ تَوَقَّفوا فَجْأَةً وعادَ كَبيرَهُمْ لِيَتَوَقَّفَ بِفَرَسِهِ أَمامَه ، قائِلًا بِلُطْفٍ : «ما بِكَ يا غُلامُ؟ ولِماذا تَغْرَورِقُ بِالدَّمْعِ عَيناكَ؟ هَلْ أَلَمَّ مُصابٌ بِالمَدينَةِ؟» .

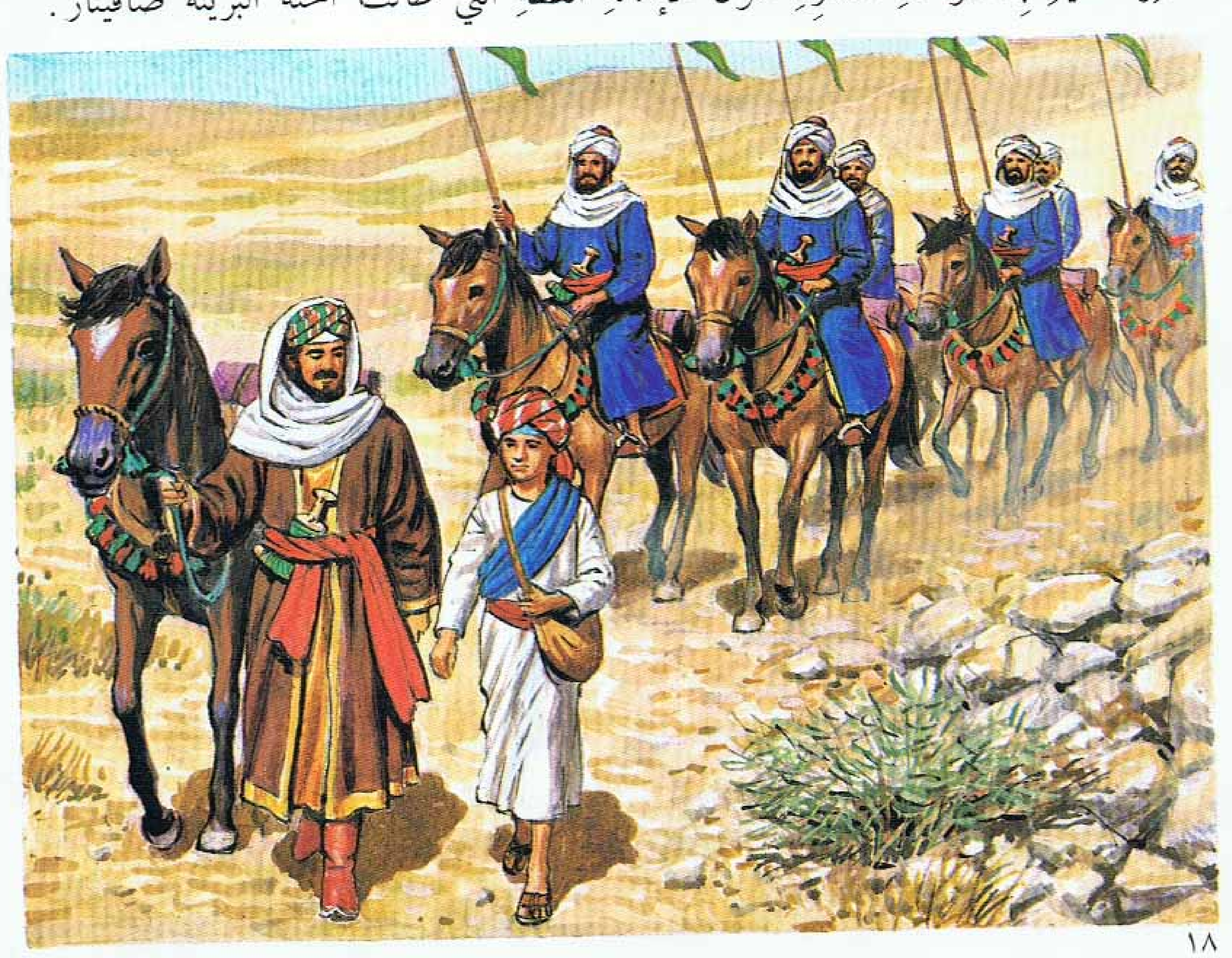
كانَ المُتَحَدِّثُ رَجُلًا مُلْتَحِيًا طَويلَ القامَةِ مُتَأَلِّقَ العَيْنَيْنِ ، تَتَماوَجُ ثِيابُهُ الحَريرِيَّةُ الفاخِرَةُ كُلَّما شَبَّ فَرَسُهُ مُتَوَثِّبًا يَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ.

وردَّ عامِرٌ : «لا يا سَيِّدي ، لَمْ يُصِبِ المَدينَةَ أَيُّ ضَرَرٍ - إِنَّما الضُّرُّ ما أَصابَ عائِلَتي مِنْ إِذْلالٍ وَضَيْمٍ لَمْ أَسْتَطِعِ احْتِمالَهُما فَرَحَلْتُ . وسأَلْحَقُ بِالقافِلَةِ المُتَّجِهَةِ إلى حَلَبَ قَبْلَ اسْتِئْنافِ مَسيرِها مِنْ واحَةِ حامِزٍ» .

وقاطَعَهُ السَّيِّدُ المُلْتَحي قائِلًا : «ولٰكِنْ يا وَلَدي ، القافِلَةُ قابَلَتْنا مَعَ الفَجْرِ مُنْطَلِقَةً مِنَ الواحَةِ ، وسَتَكونُ الآنَ بَعيدَةً جِدًّا عَنْها - ومِنَ المُسْتَحيلِ اللَّحاقُ بِها» .

ولَحَظَ السَّيِّدُ الأَسَى يَغْمُرُ وَجْهَ عامِرٍ فَتابَعَ يَقولُ : «إِنْ تابَعْتَ سَيْرَكَ في الصَّحْراءِ وَحيدًا فإِنَّكَ هالِكٌ لا مَحالَةَ ؛ قُلْ لي ما هُوَ الحَيْفُ الَّذي حَلَّ بِأَهْلِكَ؟ هَلْ هُوَ بالِغُ الخُطورَةِ إلى هٰذا الحَدِّ؟ تَعالَ سِرْ مَعي وحَدِّثْني عَمّا جَرَى» .

وتَرَجَّلَ السَّيِّدُ عَنْ فَرَسِهِ ، وسارَ مَعَهُ عامِرٌ عائِدًا باتِّجاهِ البَحْرِ وأَسْوارِ المَدينَةِ . وباحَ عامِرٌ للسَّيِّدِ بِمَكْنوناتِ صَدْرِهِ حَوْلَ الإهانَةِ الفَظَّةِ الَّتي طالَتْ أُخْتَهُ البَريئَةَ صافيناز .





وأَبْدَى السَّيِّدُ أَبو لِحْيَةَ عطْفًا مُتَزايدًا نَحْوَ عامِرٍ ، وقالَ : «أَرْغَبُ في زِيارَةِ عائِلَتِكَ ، وبِصُحْبَتِكَ يا عامِرُ ، عَلِّي أَجِدُ سَبيلًا لِمُساعَدَتِكُمْ» .

وفُوجِئَ عامِرٌ بِهٰذا العَرْضِ ، فَأَجابَ مُتَلَعْثِمًا : «لٰكِنْ أَيُّها السَّيِّدُ الماجِدُ ، نَحْنُ أُناسٌ فُقَراءُ – وأَنَّى لَنا أَنْ نُهَيِّئَ لَكَ الاسْتِقْبالَ الَّذي يَليقُ بِمَقامِكَ !» .

«لا عَلَيْكَ !» أَجابَ السَّيِّدُ «فَالِاسْتِقْبالُ الوُدِّيُّ البَسيطُ أَعَزُّ لَدَيَّ مِنْ أَيِّ حَفاوَةٍ وتَأْهيلٍ» .

وهٰكَذا عادَ عامِرٌ إلى بَيْتِهِمْ ، فَقَدَّمَ والِدَه – المُتَلَهِّفَ لِعَوْدَتِهِ – إلى السَّيِّدِ الماجِدِ . وقَضَوا الأُمْسِيَّةَ في جَلْسَةٍ رائِقَةٍ على سَطْحِ البَيْتِ يَشُفُّونَ فَناجينَ القَهْوَةِ المُطَيَّبَةِ بِالهالِ ويَتَسامَرونَ بِأَخْبارِ البِلادِ وأَحْوالِ العِبادِ .



وبَيْنَما السَّيِّدُ يُغادِرُ بَيْتَ إِبْراهيمَ مُرورًا بِالمَطْبَخِ ، وَقَعَتْ عَيْنُهُ على صافيناز في لَمْحَةٍ عابِرَةٍ. فَقالَ في نَفْسِهِ : «إِنَّها نادِرَةُ الجَمالِ حَقًّا».

وَدَّعَ السَّيِّدُ مُضيفَهُ عِنْدَ البابِ قائِلًا : «لَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ أُمْسِيَّةً أَبْهَجَتْني كَثيرًا. إِنَّ وَرائي أَشْغالًا هُنا يَنْبَغي إِتْمامُها ؛ لٰكِنْ قَبْلَ مُغادَرَتي آمُلُ أَنْ تَسْمَحوا لي بِزِيارَتِكُم ثانِيَةً».

«حُبًّا وكَرامَةً» أَجابَ إِبْراهيمُ «إِنَّ ذٰلِكَ سَيُبْهِجُنا ويُشَرِّفُنا ، أَيُّها الماجِدُ».

وكانَتْ عَوْدَةُ السَّيِّدِ بَعْدَ عِدَّةِ أَيّامٍ مُفاجَأَةً لِلْجَميعِ . لَقَدْ كانَ الماجِدُ أَبو لِحْيَةَ يَرْتَدي أَفْخَرَ الثِّيابِ وبِرِفْقَتِهِ اثْنانِ مِنَ الفُرْسانِ في لِباسِهِمِ الرَّسْمِيِّ. وكانَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ مُرافِقٍ صُنْدوقٌ مِنَ الخَشَبِ الفاخِرِ مُرْتَجٌ بِقُفْلٍ مِنَ الفُولاذِ الصَّقيلِ.

وخاطَبَ الماجِدُ إِبْراهيمَ قائِلًا : «لَقَدْ جِئْتُ أَطْلُبُ يَدَ ابْنَتِكَ يا أَبا عامِرٍ ، إِذا هِيَ تَرْضَى بي زَوْجًا».

وذُهِلَ إبْراهيمُ لِهٰذا الطَّلَبِ، وأَسْرَعَ يَسْتَدعي زَوْجَتَهُ الّتي لَمْ تَسْتَوْعِبِ المَوْقِفَ على التَّوِّ لِفَرْطِ تَأَثُّرِها. لٰكِنَّها سُرْعانَ ما أَعدَّتْ صافيناز لِمُقابَلَةِ زائِرِهِم الكَريمِ.

كانَ الصُّنْدوقانِ مَليئَيْنِ بالهَدايا الأُسْطُورِيَّةِ الرَّوْعَةِ: حُلِيٌّ ومُجَوْهَراتٌ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ، أَكْياسٌ مِنَ القِطَعِ النَّقْدِيَّةِ الذَّهَبِيَّةِ والفِضِّيَّةِ، وصُرَرٌ زاخِرَةٌ بالحِجارَةِ الكَريمَةِ المُتَأَلِّقَةِ.

لَمْ تكُنِ النَّفائِسُ لِتَجْتَذِبَ اهْتِمامَ صافيناز، فَهِيَ لَمْ تُعِرْها سِوَى نَظْرَةٍ عابِرَةٍ. لَقَدْ أَسَرَ الرَّجُلُ، الّذي جاءَ يَخْطِبُها، قَلْبَها مِنَ النَّظْرَةِ الأُوْلَى - فَشَعَرَتْ في قَرارَةِ نَفْسِها أَنَّها تُحِبُّ هٰذا الرَّجُلَ.

وقَطَعَ الماجِدُ المُلْتَحي على الجَميعِ ذُهولَهُمْ مُوَجِّهًا كَلامَهُ إلى آلِ العَروسِ: «ظُروفي سَتُطيلُ فَتْرَةَ الخُطوبَةِ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ. عَلَيَّ أَنْ أُتَمِّمَ مُهِمّاتي ووَاجِباتي في كامِلِ المِنْطَقَةِ. وسَأَبْعَثُ إلَيْكُمْ في كُلِّ أُسْبوعٍ مَزيدًا مِنَ الهَدايا لا لِتَدَّخِروها بَلْ لِتُنفِقوها عَلى حاجاتِكُمْ وتَحْسينِ أَوْضاعِكُمْ. وعِنْدَ عَوْدَتي آمُلُ أَنَّ صافيناز سَتَرْضى بي زَوْجًا. ولَسْتُ أَسْأَلُكُمْ، ولا حَتّى أَتَوَقَّعُ مِنكُمْ، وُعودًا بِذٰلِكَ الآنَ».



وبهذا الخِطاب غادَرَ الماجِدُ أبو لِحْيَةَ (كَما أَجْمَعَ آلُ إبْراهيمَ عَلى تَسْمِيَتِهِ) لِيَسْتَكْمِلَ سَفَراتِهِ. وَفي كُلِّ أُسْبوعٍ كانَ يَطْرُقُ بابَ بَيْتِ أبي عامِرٍ خَيّالٌ لِتَسْليمِ الصُّنْدوقِ المَوْعودِ بِما فيهِ مِنْ هَدايا نَفيسَةٍ.

وَلَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتّى تَسَنّى لإبْراهيمَ وعائِلَتِهِ شِراءُ بَيْتٍ فَخْمٍ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ البَلْدَةِ، تُحيطُ بِهِ الحَدائِقُ الغَنّاءُ والسّاحاتُ المُزَيَّنَةُ والمُبَرَّدَةُ بِنَوافيرِ الماءِ المُتَدفِّقِ. وتابَعَتِ العائِلَةُ حَياةَ البَساطَةِ المُتَواضِعَةِ، كَما مِنْ قَبْلُ، رُغْمَ ما أَصابُوا مِنْ ثَراءٍ.

وكانَ يَشْغَلُ بالَ صافيناز التَّفكيرُ بِسِرِّ شَخْصِيَّةِ زَوْجِ المُسْتَقْبَلِ. إنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْهُم إلّا بِالقَليلِ جِدًّا عَنْ نَفْسِهِ، وكَأَنَّهُ يَتَعَمَّدُ إبْقاءَ هُوِيَّتِهِ وطَبيعَةِ عَمَلِهِ سِرًّا غامِضًا.

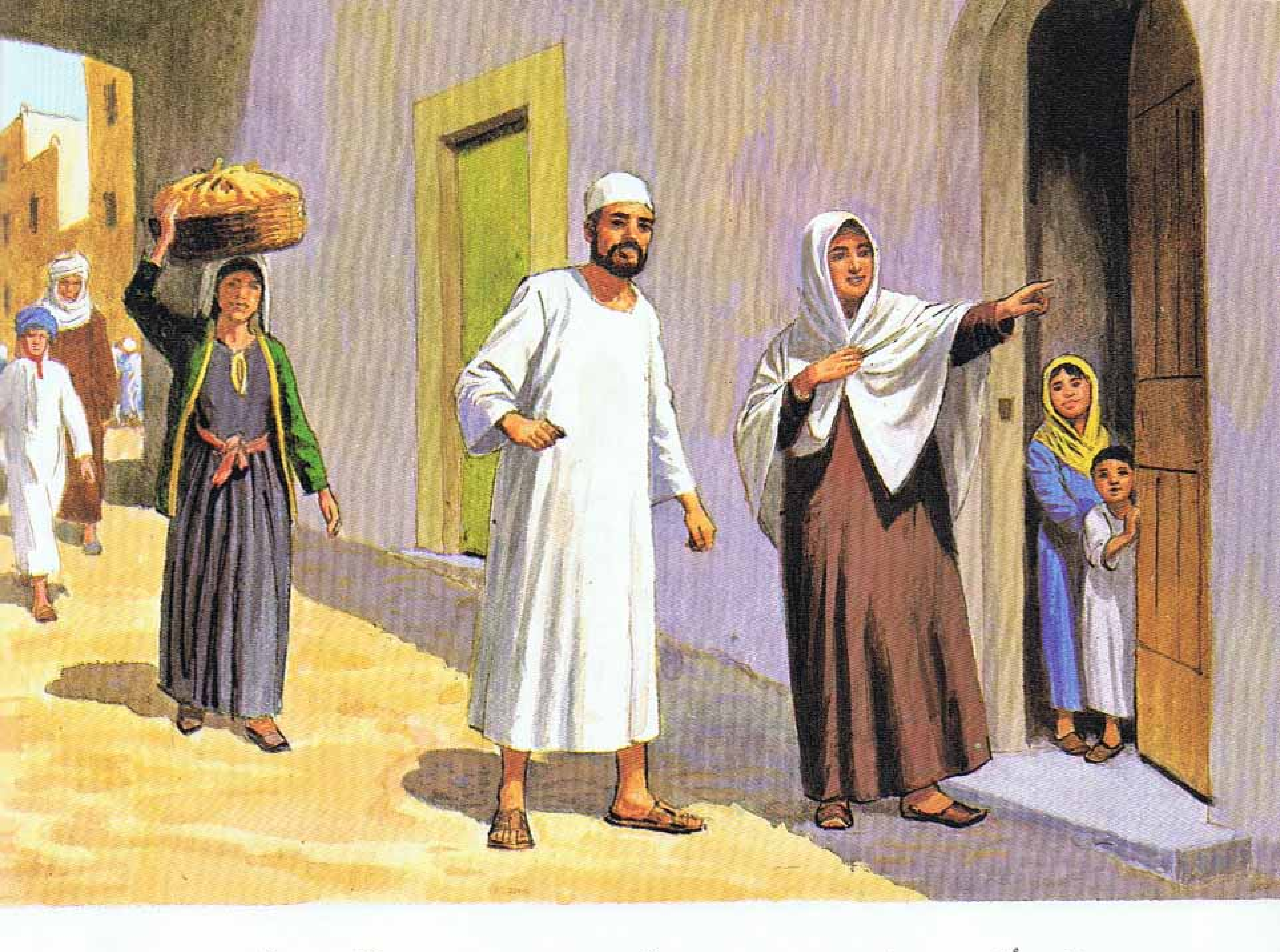
كُلُّ ما تَوَصَّلَتْ إلَيْهِ هُوَ اسْتِنْتاجُ عامِرٍ أَنَّ خَطيبَها لا بُدَّ أَنْ يَكونَ تاجِرًا فائِقَ الغِنى - أَغْنى مِنْ أَيِّ تاجِرٍ في البَلَدِ، أَغْنى حَتّى مِنْ عَبْدِ اللهِ نَفْسِهِ!





فِي تِلْكَ الأَثْناءِ كانَ عَبْدُ اللهِ وزَوْجَتُهُ يُواصِلانِ البَحْثَ عَنِ الزَّوْجَةِ المُناسِبَةِ لِوَلَدِهِما حامِدٍ. وكانَ وُجَهاءُ البَلْدَةِ، والتُّجّارُ بِخاصَّةٍ، مُنْشَغِلينَ جدًّا بِمَراسِمِ الزِّيارَةِ الّتي يَقُومُ بِها سُلْطانُ المِنْطَقَةِ. فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ سُلْطانِ شَطِّ العَرَبِ أَنْ يَجُولَ أَرْجاءَ المِنْطَقَةِ، مَدينَةً مَدينَةً، يَبْحَثُ مَعَ قادَتِها ورُؤَساءِ دَواوينِ الشُّرْطَةِ فيها شُؤُونَ النّاسِ وشكاواهُمْ وأَحْوالَهُمْ. وتَتَمَيَّزُ هٰذِهِ الزِّياراتُ عادَةً بِالمآدِبِ الفَخْمَةِ العامِرَةِ الّتي يَتَنافَسُ التُّجّارُ والوُجَهاءُ فيها تَعْبيرًا عَنْ أَرْيَحِيَّتِهِمْ وإِكْرامِهِمْ لِسُمُوِّ السُّلْطانِ.

وقَدْ أَتاحَتْ هٰذِهِ الأَيّامُ الحافِلَةُ بِالنَّشاطاتِ الاِجْتِماعِيَّةِ الفُرْصَةَ أَمامَ أُمِّ حامِدٍ لِمُقابَلَةِ مَزيدٍ مِنْ وَجيهاتِ البَلَدِ وبَناتِهِنَّ، وتَمَّ لَها أَخيرًا إِيْجادُ الفَتاةِ الّتي تَتَوافَرُ فيها مُواصَفاتُ وَلَدِها حامِدٍ وزَوْجِها عَبْدِ اللهِ.



وباحَثَتْ أُمُّ حامِدٍ زَوْجَها ووَلَدَها في أَمْرِ الفَتاةِ. فوَصَفَتْها بِأَنَّهُ لا بَأْسَ بِجمالِها، وأَنَّها حادَّةُ المِزاجِ نَوْعًا، ولعَلَّها في عُمْرِ حامِدٍ أَوْ تكبُرُهُ قليلًا؛ لٰكِنَّها مِنْ بَيْتٍ بالِغِ الثَّراءِ والوَجاهَةِ. ولَمْ يَشأْ عَبْدُ اللهِ إضاعَةَ مَزيدٍ مِنَ الوَقْتِ، فَتَقدَّمَ في اليَوْمِ التالي يَخْطِبُها مِنْ أَهْلِها الَّذينَ لَمْ يَتردَّدوا في القَبولِ.

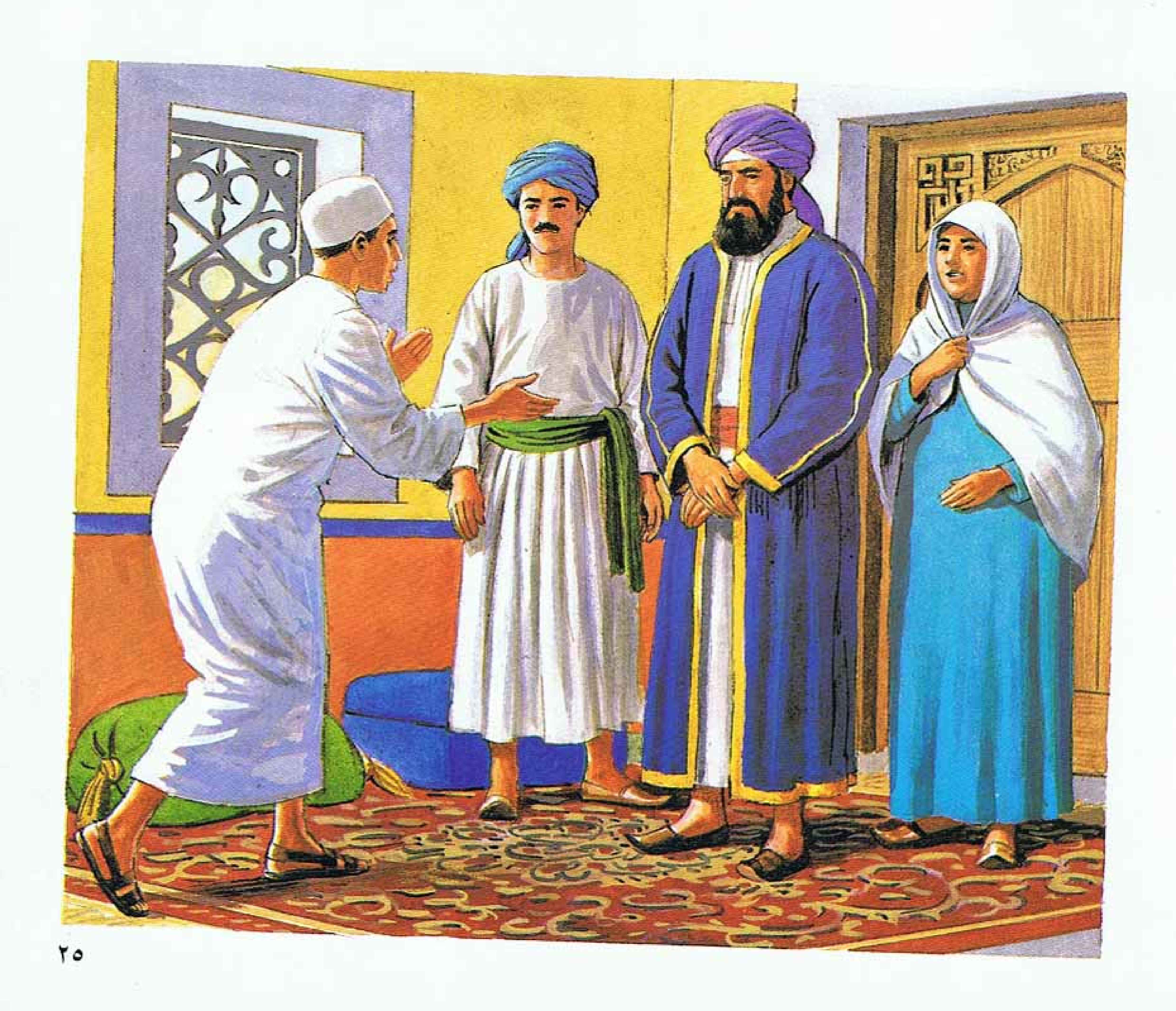
وتَحَدَّدَ مَوْعِدُ الزِّفافِ؛ وأَرادَهُ أَبو حامِدٍ احْتِفالًا لَمْ تَشْهَدْ لَهُ المَدينَةُ مَثيلًا في زَمانِها. وجَرَى تَوْزيعُ الدَّعواتِ لِلْحَفْلَةِ؛ ولَمْ تكُنْ أُمُّ حامِدٍ لِتَنْسَى دَعْوَةَ إبْراهيمَ وعائِلَتِهِ، ولَوْ أَنَّها لَمْ تَتَّصِلْ بِهِمْ أَوْ تَسْمَعْ شَيْئًا عَنْهُم مُنْذُ حادِثَةِ الجَواهِرِ المُحْرِجَةِ.

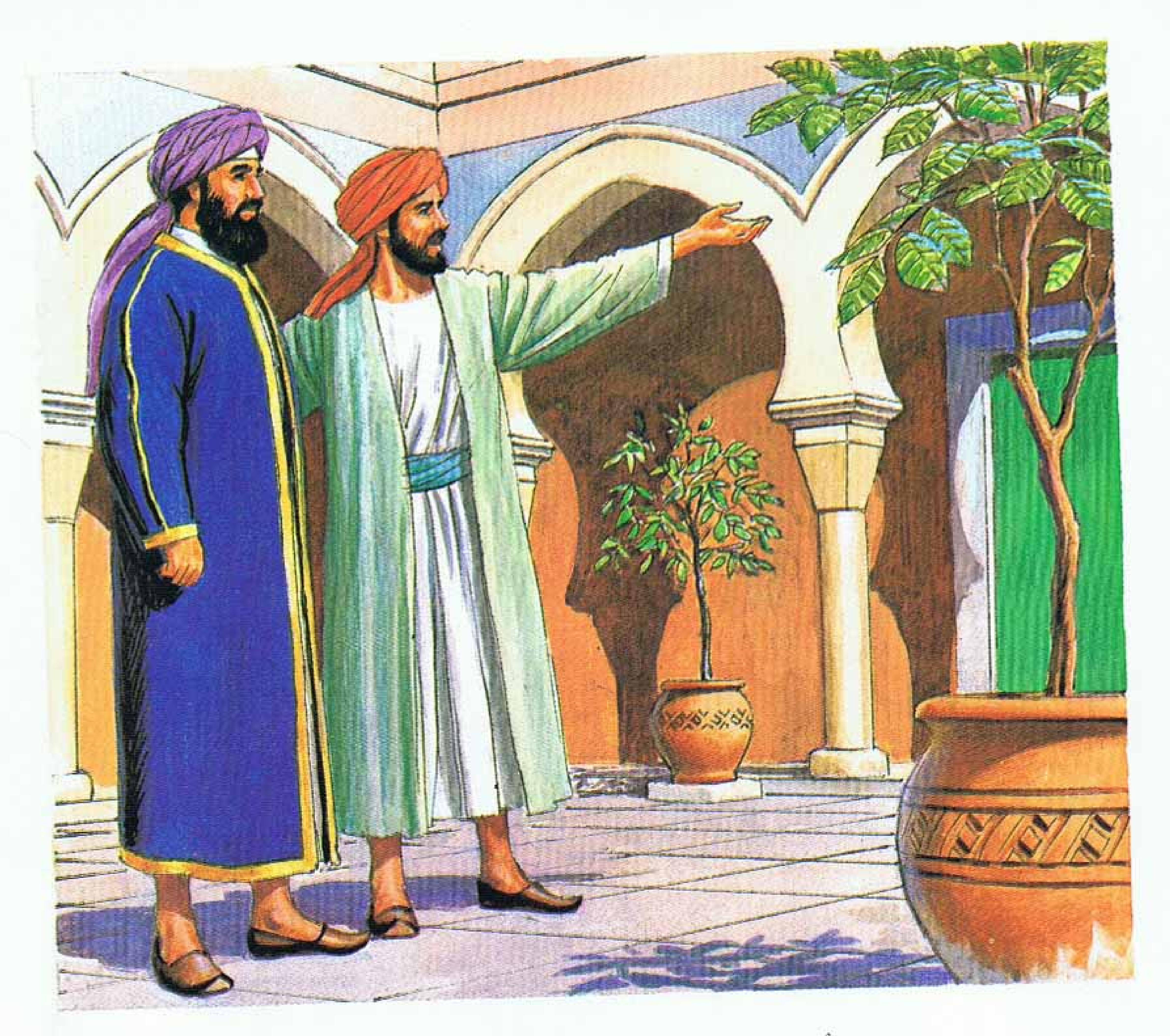
وحَمَلَ الخادِمُ الدَّعْوَةَ إلى بَيْتِ إبْراهيمَ القَديمِ، فَأَنْبَأَهُ أَحَدُ الجيرانِ أَنَّهُم غادَروا الحَيَّ؛ وتكَرَّمَ بِإرْشادِهِ إلى مَقَرِّ إقامَةِ العائِلَةِ الجَديدِ.

وطَمْأَنَ الخادِمُ سَيِّدَتَهُ إلى أَنَّهُ قَدْ أَوْصَلَ الدَّعْوَةَ إلى أَصْحابِها - لا في بَيْتِهِمِ القَديمِ ، بَلْ في مَنْزِلٍ فَخْمٍ في الحَيِّ الآخَرِ مِنَ المَدينَةِ.

وبَعَثَتْ أُمُّ حامِدٍ خادِمًا آخَرَ لِيَتَأَكَّدَ مِنَ النَّبَإِ ، ولِيَتَقَصَّى لَها مَزيدًا مِنْ أَخْبارِ إبْراهيمَ وعائِلَتِهِ. وعادَ الخادِمُ بِتَقْريرٍ وافٍ جَلَبَ اهْتِمامَ كُلِّ أَفْرادِ العائِلَةِ - قالَ : «أَخْبَرَني الجيرانُ أَنَّ عائِلَةَ إبْراهيمَ انْتَقَلَتْ إلى ذٰلِكَ المَنْزِلِ مُنْذُ شَهْرٍ. ويَبْدو أَنَّهُمْ على قَدْرٍ عَظيمٍ مِنَ الثَّراءِ - فَهُمْ كُرَماءُ جَوّادونَ ، وهُمْ طَيِّبونَ جِدًّا ويَسْتَقْبِلونَ مَنْ يَزورُهُم بِكُلِّ وُدٍّ وتَرْحابٍ».

وراحَ أَفْرادُ العائِلَةِ يَتَساءَلونَ : «كَيْفَ حَدَثَ هٰذا يا تُرى !».





وبِمَنْطِقِ مُصانِعي الظُّروفِ تَمْتَمَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ : «واضِحٌ أَنّا أَهْمَلْنا صَديقَنا القَديمَ إبْراهيمَ ؛ لَقَدْ آنَ الأَوانُ كَيْ أَزورَهُ» . وَفي بَعْدِ ظُهْرِ اليَوْمِ نَفْسِهِ كانَ عَبْدُ اللهِ ضَيْفًا في مَنْزِلِ صَديقِهِ القَديمِ الّذي اسْتَقْبَلَهُ بِبالِغِ الحَفاوَةِ والتَّكْريمِ .

لَقَدْ بُهِتَ عَبْدُ اللهِ بِمَا رَأى ، وحَدَّثَتْهُ نَفْسُه بِأنّ مَنْ يَمْلِكُ مِثْلَ هٰذا البَيْتِ القَصْرِ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ في مِثْلِ ثَرائِهِ هُوَ وأَزْيَدَ. وتَلاحَقَتْ تَساؤُلاتُ «مِنْ أَيْنَ؟» في رَأْسِهِ .

ولَمْ يَقْطَعْ عَلَيْهِ ذُهولَهُ وتَساؤلاتِهِ إلّا طَلَّةُ صافيناز تُضَيِّفُهُ القَهْوَةَ والبُقْسُماطَ . وكانَ ذُهولُهُ بِها أَعْظَمَ ؛ وقالَ هاجِسٌ في نَفْسِهِ : «إنّها حقًّا مَلاحَةٌ يَعِزُّ نَظيرُها» .

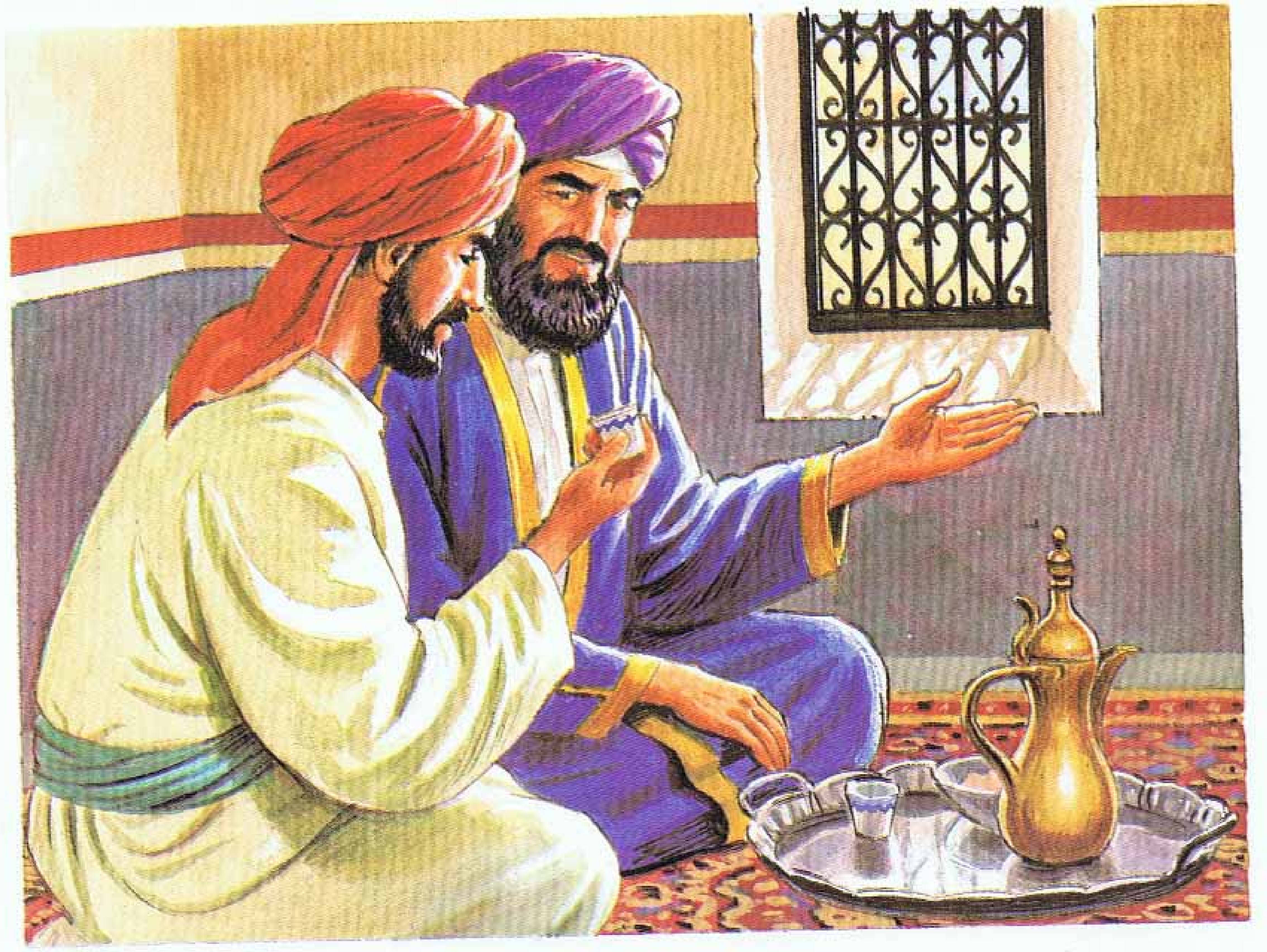
وعِنْدَ انْصِرافِ صافيناز قالَ عَبْدُ اللهِ بِشَيْءٍ مِنَ الارْتِباكِ: «يا تَبارَكَ اللهُ! هَلْ خُطِبَتْ كَريمَتُكُمْ يا بَرْهومُ، أَوْ بَعْدُ؟».

وأَجابَ إِبْراهيمُ: «لَقَدْ أَسْعَدَنا اللهُ بِسَيِّدٍ ماجِدٍ تَقَدَّمَ لِخُطوبَتِها – إِنَّهُ لَخَيْرُ زَوْجٍ تَحْلُمُ بِهِ فَتاةٌ»، وحَوَّلَ إِبْراهيمُ دَفَّةَ الحَديثِ مُتابِعًا: «إِنَّ ابْنَكُمْ حامِدًا مُقْبِلٌ أَيْضًا على الزَّواجِ، وهٰذا نَبَأٌ أَسْعَدَنا؛ والواقِعُ أَنّا قَدْ أَعْدَدْنا لَهُ هَدِيَّةَ زِفافٍ – ويُسْعِدُنا أَنْ نُكَلِّفَكَ بِحَمْلِها إِلَيْهِ».

وعادَ عَبْدُ اللهِ بِالهَدِيَّةِ إلى وَلَدِهِ، والتَّساؤُلاتُ تُراوِدُ خاطِرَهُ. وَفي البَيْتِ فَتَحَ حامِدٌ الهَدِيَّةَ: طَقْمُ سُفْرَةٍ رائِعٌ مِنَ الفِضَّةِ الخالِصَةِ – أَبْهى ما يُمْكِنُ أَنْ يُشْرى بِمالٍ!

ولَمْ يُخْفِ عَبْدُ اللهِ خَبايا صَدْرِهِ عِنْدَئِذٍ، فَفاجَأَ وَلَدَهُ قائِلًا: «لَقَدِ ارْتَكَبْنا خَطَأً شَنيعًا. صافيناز، ابْنَةُ إِبْراهيمَ، هِيَ الفَتاةُ المُناسِبَةُ لَكَ الآنَ! يَجِبُ أَنْ نُلْغِيَ تَرْتيباتِ زِفافِكَ المَوْعودِ فَوْرًا».





وانتشرَ نبأُ إلغاءِ زِفافِ حامدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بَعْدَ أَنْ أَوْشكَتِ الاسْتِعْداداتُ لَهُ أَنْ تتِمَّ – وَسَطَ دَهْشَةِ سُراةِ البَلَدِ وتَساؤلاتِهِمْ.

وَلَمْ يَمْضِ طَويلُ وَقْتٍ حَتَّى قَصَدَ عَبْدُ اللهِ بَيْتَ إبْراهيمَ يَخْطِبُ ابْنَتَهُ صافيناز لِابْنِهِ حامِدٍ، مُتَجاهِلًا ما مَضى، زاعِمًا أنّ هٰذا الزَّواجَ المَيْمونَ سيُوَحِّدُ العائِلَتَيْنِ ويُعيدُ صَداقَةَ الماضي – صَداقَةَ أَيّامِ الصِّبا.

وابْتَسَمَ إبْراهيمُ وهُوَ يَرُدُّ على الصَّديقِ قائِلًا: «كَمْ يُشرِّفُني هٰذا العَرْضُ، لٰكِنَّ صافيناز مَخْطوبَةٌ، ونَحْنُ قَبِلْنا الخُطوبَةَ وبارَكْناها».

وقاطَعَهُ عَبْدُ اللهِ: «ولٰكِنْ باستِطاعَتِكَ أَنْ تُغيِّرَ ذٰلِكَ بالتَّأْكيدِ».

وردَّ إبراهيمُ بِبُرودٍ: «لِلأَسَفِ يا صَديقُ، لَنْ نَفْعَلَ ذٰلِكَ – فَنَحْنُ ما تعوَّدْنا أَنْ نَجْحَدَ الفَضْلَ ولا أَنْ نَنْكُثَ الوَعْدَ» – وراحَ يَرْوي لَهُ قِصَّةَ الماجِدِ المُلْتَحي صِهْرِ المُسْتَقْبَلِ.

كانَتِ الأَنْباءُ الّتي عادَ بِها عَبْدُ اللهِ مُخَيِّبَةً لِآمالِ العائِلَةِ، وبِخاصَّةٍ أُمُّ حامِدٍ الّتي صَرَخَتْ غاضِبَةً: «ومَنْ يَكونُ هٰذا السَّيِّدُ أَبو لِحْيَةَ؟ لا أَظُنُّهُ إلّا ساحِرًا أَوْ جِنِّيًّا مُتَقَمِّصًا! ثُمَّ لِمَ لَمْ تُذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ سَبَقَ وقَبِلوا خُطوبَتَنا. نَعَمْ، نَحْنُ غَيَّرْنا رَأْيَنا - لٰكِنَّ الوَعْدَ يَبْقى وَعْدًا! يَجِبُ أَنْ يَفْهَموا ذٰلِكَ!».

وعَلى الأَثَرِ دَبَّ الخِلافُ بَيْنَ العائِلَتَيْنِ. وتَمَسَّكَ عَبْدُ اللهِ بِما ادَّعَتْهُ امْرَأَتُهُ مِنْ أَنَّ صافيناز كانَتْ قَدْ قَبِلَتْ خُطوبَةَ حامِدٍ. وراحَ يُشيعُ في المَدينَةِ أَنَّ صافيناز قَدْ أُخِذَتْ بِسِحْرِ ساحِرٍ أَفْسَدَ العائِلَةَ بِهَداياهُ الفَتّانَةِ. وصَرَّحَ بِأَنَّهُ سَيَنْتَهِزُ فُرْصَةَ زِيارَةِ السُّلْطانِ المُنْتَظَرَةِ لِيَعْرِضَ القَضِيَّةَ عَلَيْهِ!





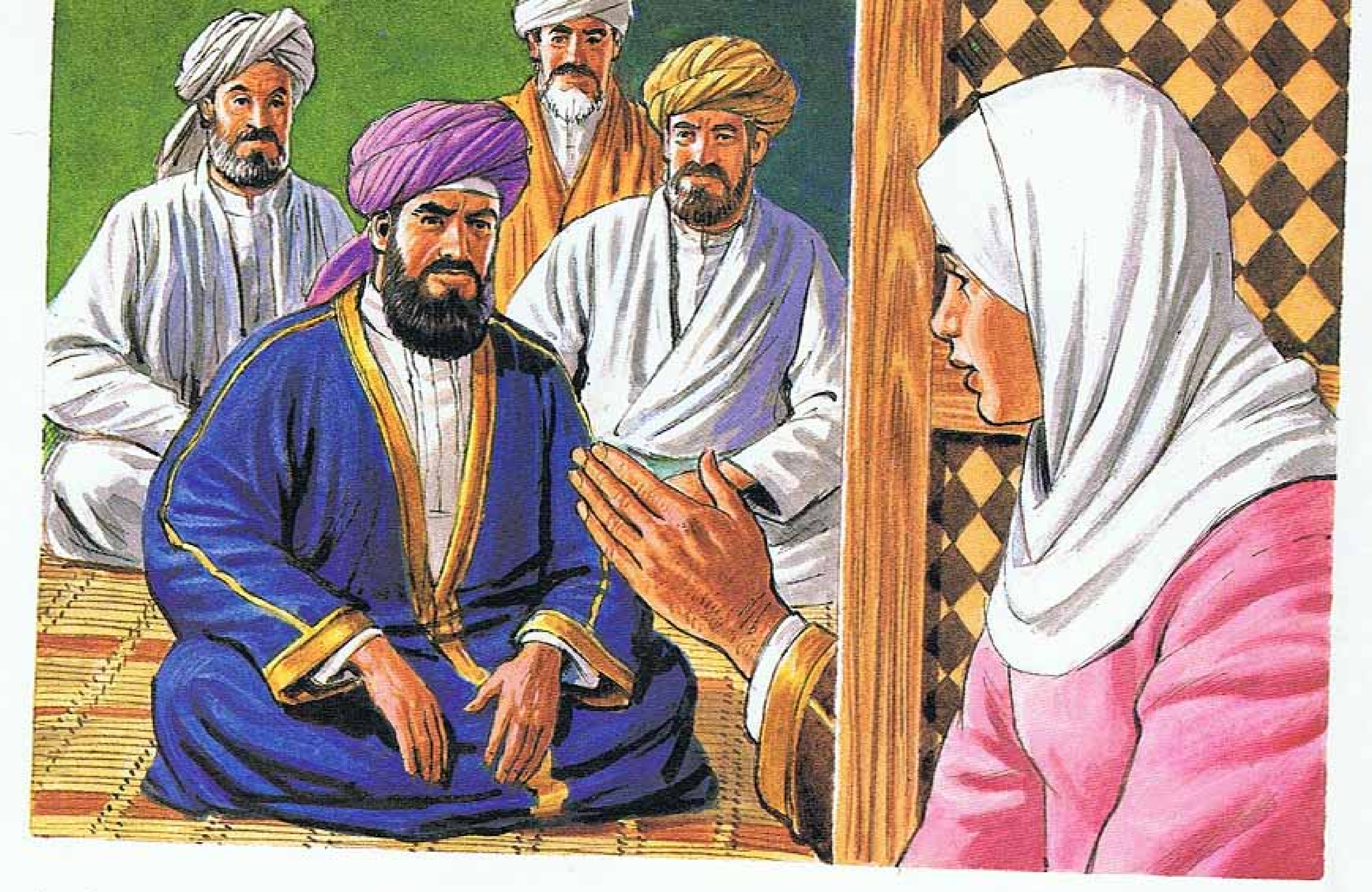
جَلَسَ السُّلْطانُ يَسْتَمِعُ إلى شكْوى عَبْدِ اللهِ بِجدِّيَّةٍ ووَقارٍ. وبَعْدَ اِسْتِعْراضِ الشَّكْوى قالَ السُّلْطانُ: «العَدْلُ يَقْتَضي أَنْ نَسْمَعَ أَقْوالَ الفَتاةِ نَفْسِها».

واسْتُدْعِيَتْ صافيناز إلى حَضْرَةِ السُّلْطانِ بِصُحْبَةِ والِدِها. وجَرى اسْتِجْوابُها مِنْ وَراءِ حِجابٍ، كَما جَرَتِ العادَةُ. بَدَأَ السُّلْطانُ قائِلًا: «أَيَّتُها الفَتاةُ، عَلَيْكِ أَنْ تَرُدّي على تُهْمَتَيْنِ مُوَجَّهَتَيْنِ إلَيْكِ:

أَوَّلًا أَنْتِ مُتَّهمَةٌ بِنكْثِ وَعْدٍ بِالزَّواجِ مِنْ حامِدٍ بْنِ عَبْدِ اللهِ؟ بِماذا تَرُدّينَ؟».

فَرَدَّتْ صافيناز قائِلَةً: «لا يا سَيِّدي، لَمْ يَصْدُرْ عَنّي مِثْلُ هٰذا الوَعْدِ. كُلُّ ما في الأَمْرِ أَنّي وَعَدْتُ بِدِراسَةِ عَرْضِ الزَّواجِ ذاكَ الَّذي أَرْفَقَتْهُ السَّيِّدَةُ أُمُّ حامِدٍ بِعُرْبونٍ مِنَ الحُلِيِّ. لٰكِنَّها طَلَبَتِ اسْتِعادَةَ الحُلِيِّ في اليَوْمِ التّالي، فَأَعَدْتُها - وطَبْعًا لَمْ يَعُدْ لي هُناكَ ما أَدْرُسُهُ!».

والْتَفَتَ السُّلْطانُ إلى عَبْدِ اللهِ يَسْتَفْسِرُهُ، فَأَجابَ هٰذا مُتَلَعْثِمًا ومُرْتَبِكًا: «إنَّ زَوْجَتي لَمْ تُشِرْ إلى مَوْضوعِ الحُلِيِّ مُطْلَقًا. لَقَدْ كَتَمَتْ ذٰلِكَ عَنّي!».



وتابَعَ السُّلْطانُ: «رَدُّكِ يا فَتاةُ أَسْقَطَ التُّهْمَةَ الأُولى، فَما قَوْلُكِ في الثّانِيَة؟ أَنْتِ مُتَّهَمَةٌ بِمَشْروعِ زَواجٍ مِنْ ساحِرٍ يَلُفُّه الغُموضُ. هَيّا صِفي لَنا هٰذا الرَّجُلَ الغامِضَ».

فَرَدَّتْ صافيناز: «إِنَّهُ رَجُلٌ حَسَنُ الطَّلْعَةِ كَأَبْهى الرِّجالِ، طَويلٌ، قَوِيٌّ، حُلْوُ الشَّمائِلِ، طَيِّبُ النَّفْسِ».

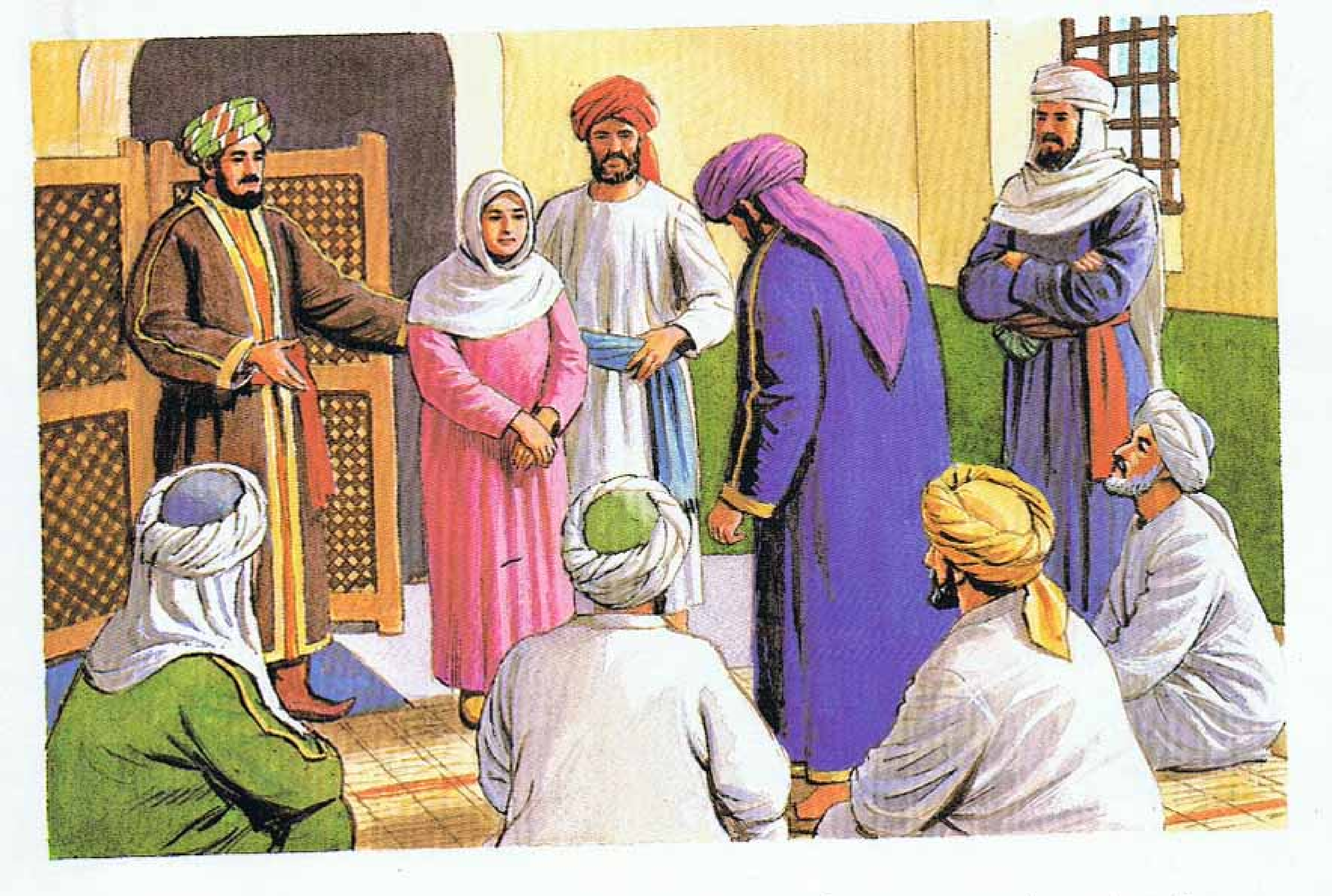
وقاطَعَها السُّلْطانُ مُضيفًا: «ولٰكِنْ هَلْ هُوَ رَجُلٌ عادِيٌّ؟ صِفي لَنا مَظْهَرَهُ. صِفي لي يَدَيْهِ مَثَلًا – هَلْ هُما كَيَدَيَّ أَوْ مُخْتَلِفَتانِ؟». ومَعَ سُؤالِهِ ذاكَ، مَدَّ السُّلْطانُ يَدَيْهِ لِتَراهُما صافيناز مِنْ وَراءِ سِتْرِها.

وَرَدَّتْ صافيناز: «إِنَّ يَدَيْكَ شَبيهَتانِ بِيَدَيْهِ، يا مَوْلايَ».

«وَصَوْتُهُ؟» أَرْدَفَ السُّلْطانُ «هَلْ هُوَ مَثيلٌ لِصَوْتي أَوْ مُبايِنٌ لَهُ؟»

ورَدَّتِ الفَتاةُ: «بَلْ إِنَّ صَوْتَهُ مَثيلٌ لِصَوْتِكَ، كَأَنَّهُ هُوَ».

وتابَعَ السُّلْطانُ: «ووَجْهُهُ؟ هَلّا وَصَفْتِهِ؟ هَلْ هُوَ شَبيهٌ وَجْهي؟».



وعِنْدَ هٰذا السُّؤالِ وقَفَ السُّلْطانُ كَيْ يتسَنَّى لِصافيناز رُؤيَةُ وَجْهِهِ. وهُنا هَتفَتْ صافيناز بِصَوْتٍ مُتهَدِّجٍ : «إنَّهُ أنْتَ، إنَّهُ أنْتَ يا مَوْلايَ السُّلْطانَ!».

وغَصَّتِ القاعَةُ بِشَهَقاتِ التَّعَجُّبِ وتكْبيرِ الحاضِرينَ. وحِيْنَ هَدأَتْ مَوْجَةُ الاسْتِغْرابِ الْتفَتَ السُّلْطانُ نَحْوَ عَبْدِ اللهِ قائِلًا : «أَعْتَقِدُ أَنَّ القَضِيَّةَ حُسِمَتْ لِمَصْلَحَةِ المُتَّهَمَةِ – إلّا إذا كُنْتَ يا عَبْدَ اللهِ تَظُنُّني ساحِرًا!». ثُمَّ الْتفَتَ السُّلْطانُ إلى إبْراهيمَ مُتابِعًا كَلامَهُ : «وأَنْتَ يا إبْراهيمُ – نَتْرُكُ لَكَ حُرِّيَّةَ اخْتِيارِ الحُكْمِ، الَّذي يُقَوِّمُ ما أَنْزَلَهُ عَبْدُ اللهِ بِعائِلَتِكَ مِنْ ضُرٍّ، عُقُوبَةً أَوْ غَرامَةً».

وتَطَلَّعَ إبْراهيمُ نَحْوَ عَبْدِ اللهِ، الَّذي كانَ يُطْرِقُ عَيْنَيْهِ خَجَلًا، ثُمَّ نَحْوَ السُّلْطانِ قائِلًا : «لا أَطْلُبُ لِعَبْدِ اللهِ عُقُوبَةً ولا مِنْهُ غَرامَةً؛ وأَرَى أَنَّهُ قَدْ عانَى ما فيهِ الكِفايَةُ».

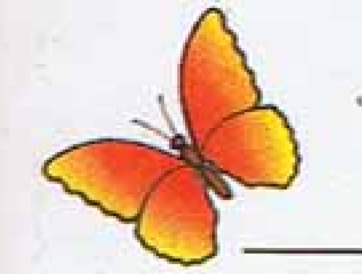
وقاطَعَهُ السُّلْطانُ قائِلًا : «في هٰذِهِ الحالِ أَعْتَبِرُ القَضِيَّةَ مُنْتَهِيَةً. هَيّا أَقيموا الزِّيناتِ وادْعُوا أَهْلَ المَدينَةِ إلى وَلِيمَتي، لِيَحْتَفِلوا بِزِفافِ السُّلْطانِ!».

كتب الفراشة - حكايات محبوبة

١. ليلى والأمير
٢. معروف لإسكافيّ
٣. الباب الممنوع
٤. أبو صير وأبو قير
٥. ثَلاث قصص قصيرة
٦. الابن الطَّيِّب
وأخواه الجحودان
٧. شروان أبو الدّباء
٨. خالد وعايدة
٩. جحا والتّجار الثّلاثة
١٠. عازف العود
١١. طربوش العروس
١٢. مهرة الصَّحراء
١٣. أميرة اللُّؤلؤ
١٤. بساط الرّيح
١٥. فارس السَّحاب
١٦. حلّاق الإمبراطور
١٧. عِملاق الجزيرة
١٨. نبع الفرس
١٩. تلّة البلّور
٢٠. شُميْسة
٢١. دُبّ الشّتاء
٢٢. الغَزال الذّهبيّ
٢٣. حِمار المعلّم
٢٤. نور النّهار
٢٥. الماجد أبو لحية

مكتبة لبنان ناشِرون ش.م.ل.
ساحة رياض الصّلح، ص.ب: ٩٤٥-١١
بيروت، لبنان

الطبعة الأولى، ١٩٩٤
طُبِع في لبنان
رقم الكتاب 01 C 195611



كتب الفراشة

حكايات محبوبة ٢٥. الماجد أبو لحية

في **كُتُبِ الفَراشَةِ** سَلاسِلُ تَتَناوَلُ أَلْوانًا مِنَ المَوْضوعاتِ في العُلومِ المُبَسَّطَةِ والأَدَبِ القَصَصِيِّ والحَضاراتِ. ويُراعى فيها سِنُّ القارِئ ، مادَّةً وأُسْلوبًا وإِخْراجًا.

كُتُبُ الفَراشَةِ تَمْتازُ بِالتَّشْويقِ الشَّديدِ ، وبِرُسومٍ مُلَوَّنَةٍ بَديعَةٍ ، وبِمَعارِفَ جديدَةٍ قَريبَةِ المُتَناوَلِ ، وبِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ صافِيَةٍ وواضِحَةٍ. إِنَّها كُتُبُ مُطالَعَةٍ مُمْتازَةٌ.


01C195611

مكتبة لبنان ناشرون